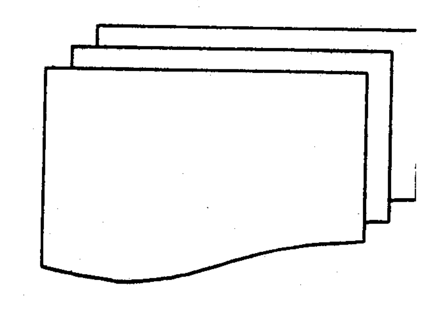


بلاغة السكوت فى صحيح مسلم

إعداد

د/محمد أحمد أبو زيد

المدرس بجامعة الأزهر

لجنة التحكيم

أ.د/ هاشـــم محمــــد هاشـــم عضو اللجنة العلمية الدائمة

أ.د/ أحمـــد عبـــد الجـــواد عكاشـــة عضو اللجنة العلمية المحكمة

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، ورحمة الله للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحابته الغر الميامين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين

وبعد:

لقد خلق الله الإنسان، وكرمه، وفضله على كثير من مخلوقاته قال تعالى:﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1] وذكر العلماء أن من مظاهر التكريم والتفضيل العقل والمنطق، فالعقل عنصر التمييز فى بنى الإنسان، والمنطق هو الأصل المعتمد عليه فى البيان، وأداته اللسان، ومن آياته تعالى فى خلقه اختلاف الألسنة لاختلاف البيئات، ولما كان اللسان أداة البيان الذى هو المهمة الأولى للرسل جاء طلب موسى – عليه السلام – من ربه ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾[2] لأن اللسان كلما كان أبين كان أقدر على توصيل المراد، وأحمد عند الناس، ومن هنا اتسعت الدراسات حول اللفظ وأهميته ، وشملت جوانب متعددة منه، وبهذا يكون اللفظ المنطوق قد حاز قدراً من الأهمية، ومما لا شك فيه أن هناك وسائل بيانية أخرى، لها من القدر والأهمية ما يقارب اللفظ، ومنها السكوت، وقد نص العلماء على أنه من البلاغة، إذا جاء فى موضعه، بحيث يفيد ما لا يفيده الكلام، والذى يطالع الحديث الشريف فى مصادره، ويستقرى نصوصه فى مصنفاته، يجد الكلام والسكوت أداتين للتعبير، وأن لكل منهما مقاما يتطلبه الحال، ويستدعيه سياق الكلام، ففى الأعم الأغلب نجد بيانه ﷺ كان بالقول، لأنه أداته الأولى، وقد نجد السكوت فى بعض المواقف، وسكوته ﷺ فيه بيان وتشريع أيضا، وكذلك فعل الصحابة رضوان الله عليهم، فسكوت النبى ﷺ أو صحابته الكرام أحياناً، ليس من النوافل فى عالم البيان، بل له دوره الفعال فى الدلالة على المراد، وهذا الدور لا يقل عن دور الكلمة، لذلك نجد الرواة يحرصون – وهم ينقلون إلينا السنة المطهرة – على نقل ذلك نقلاً أميناً بالنص عليه، إشعاراً منهم بإدراكهم لأهمية كل ما يصدر عنه ﷺ من ألفاظ

([1]) الإسراء الآية ٧٠ .

([2]) طه ٢٧، ٢٨ . ولما كانت دعوة الأنبياء مستجابة قطعاً، جاء قوله تعالى: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ . طه ٣٦ .

وعبارات، أو حركات وسكنات، وكذلك ما يصدر عن الصحابة الكرام بعضهم البعض، وإن كانوا رضوان الله عليهم أقل منه بلاغة، وذلك لاعتقاد هؤلاء الرواة أن دلالة السكوت كدلالة اللفظ، بل ربما تفوقه، لأن الساكت قد يفهم بسكوته ما لا يفهمه بألفاظه، وهذه هى مواضع السكوت فى الحديث الشريف ، وإذا كان النطق والسكوت أداتين للتعبير، فإن ما يوافق الحال، ويلائم المقام، ويحقق الهدف المقصود يستحق الوصف بالأبلغية ، ومن هنا فقد أعلى العلماء من شأن السكوت الواقع فى موقعه، واعتبروا دلالته كدلالة اللفظ، وهذا البحث يجمع مواطن السكوت فى صحيح مسلم، ويكشف عن دلالاتها، وما تميزت به من خصائص ، وهو بعنوان (بلاغة السكوت فى صحيح مسلم) وقد اخترت صحيح مسلم من بين كتب الحديث ؛ لأنه من أمهات الكتب التى جمعت فأوعت، وهو أحد المصادر الموثقة كل التوثيق، وقد شهد بذلك علماء الأمة المعتد بهم فى هذا المجال، كما أنه يحوى مادة نصية وفيرة تكفى لأن تقوم عليها الدراسة، فضلا عن أنه لم يحظ بالدراسة البلاغية التى حظى بها غيره، فقمت بقراءة (صحيح مسلم) أكثر من مرة، وتتبعت النصوص بوعى ويقظة، كى أرصد مواضع السكوت فيه، بعدها حاولت أن أستجلى خصائص كل صورة مستعينا بالسياق الذى استدعى النص الممثل للمادة الأساسية، ثم وضعت كل صورة تحت الغرض الذى جاءت من أجله، بعد ضم النظير إلى نظيره، ولا يغيب عن بالنا دور الراوى، فهو المصدر الهام فى الإخبار عن السكوت ووقوعه [1] كما لا يخفى علينا أن ذكر الراوى لمقومات الحدث، يعطى نوعا من الواقعية فى اعتبار السامع، مما يجعله أكثر قرباً منها وارتباطا بها، حتى كأنها تحدث أمامه، وهو يعايشها، فإذا ما وصل إلى نقطة السكوت فى الحدث، استلهم أسراره، وفقه ما يرمى إليه .

هذا وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتى فى مقدمة وتمهيد ، ثم عرض مبسط لموضوع البحث ثم خاتمة وفهارس،والله أسأل أن ينفع به،وهو الهادى إلى سواء السبيل .

د/ محمد أحمد أبو زيد

---

(1) لأنه إما أحد الشخصيات المشاركة فى صنع الحدث، وإما الحاضر وقتها والمشاهد لها، بجانب دوره الأساسى فى الإلقاء الشفاهى والإخبار بالسكوت .

تمهيد

فى هذه السطور نستعرض أقوال العلماء السابقين فى السكوت، وأهميته، ومواضعه، وبيان أن السكوت إلا عن خير من الإيمان، وبيان بعض دلالاته وإيحاءاته فى الحديث الشريف، فنقول وبالله التوفيق لقد أعلى العلماء من شأن السكوت البليغ وفضلوه على الكلام، ورووا فى ذلك آثاراً عدة [1].

قال الجاحظ: (الصمت أفضل من الكلام فى مواطن كثيرة وإن كان صوابا، وألفيت السكوت أحمد من المنطق فى مواضع جمة وإن كان حقا) [2]، ويقول ابن عبد ربه (ت ٩٤٠م): (الصمت يكسب أهله المحبة، وقالوا : استكثر من الهيبة بالصمت، والندم على السكوت خير من الندم على الكلام، وقالوا: السكوت سلامة) [3] وكان القدامى يعدون السكوت من الحلم، لذلك (قال نافع بن جبير فى معاوية: كان يسكته الحلم، وينطقه العلم) [4] .

---

(١) ومن ذلك قول أبى العتاهية:

والصمت أجمل بالفتى   من منطق فى غير حينه

ديوانه ص٤٤٩، البيان والتبيين، الجاحظ ١٩٧/١ .

وقال بعض الكلبيين:

واعلم بأن من السكوت إبانة   ومن التكلم ما يكون خبالا

البيان والتبيين ١٣٥/١، العمدة ٢٤٣/١ . وقال كسرى: الصمت خير من عِي الكلام ، ونهاية الأرب . النويرى ٣٨١/٣ والعيّ: خلاف البيان، والعِيُّ: العجزعن بيان المراد ؛ لأن الإنسان إنما فضل على ما عداه من الحيوان بالبيان، فإذا نطق ولم يفصح عاد بهيما .

(٢) رسائل الجاحظ . اختيار الإمام عبيد بن حسان ٢٢٩/٤ .

(٣) العقد الفريد ص٣٣٠ .

(٤) سر الفصاحة . ابن سنان الخفاجى ص ١٧٧ .

وقال الحسن : " لسان العاقل من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام تفكر، فإن كان له قال، وإن كان عليه سكت، وقلب الجاهل من وراء لسانه فإذا هم بالكلام تكلم به له أو عليه " [1] .

وجعلوا السكوت عن مجاراة السفيه من الخير [2] .

والسكوت المعنىّ فى كل ما تقدم هو السكوت الذى يفيد ما لا يفيده الكلام، حيث كان أحصر نفعاً، وأحسن موقعا، وهذا هو معنى قول الإمام / عبد القاهر: "والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن " [3] ، وهو الذى عناه ابن المقفع (ت١٤٥هـ) بقوله (البلاغة: اسم لمعان تجرى فى وجوه كثيرة، منها ما يكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً، ومنها ما يكون خطباً...)[4]، فانظر كيف جعل السكوت أول المعانى التى تجرى فيها وجوه البلاغة [5] وإذا كان الكلام يعرى من الخير، أو يجلب الشر فالسكوت أولى [6]:

---

(1) البيان والتبيين ١/١٧٢ ، وكان أعرابي يجالس الشعبى (ت١٠٣هـ) فيطيل الصمت، فسئل عن طول صمته، فقال: " أسمع فأعلم، وأسكت فأسلم، وقالوا: لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب [السابق ١/١٩٤] .

(2) لذلك يقول الشاعر:

إذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخير من إجابته السكوت
إذا كلمته فرجت عنه ... وإن تركته كمدا يموت

(3) كتاب دلائل الإعجاز تح/ محمود شاكر ص١٤٦ ط المدنى .

(4) البيان والتبيين ١/٦٤، كتاب الصناعتين . أبو هلال العسكرى ص ٢٣، العمدة ١/٢٤٣ .

(5) ويوضح أبو هلال العسكرى (ت٣٩٥هـ) المواضع التى يكون السكوت فيها أولى من الكلام، فيقول : " فالسكوت يسمى بلاغة مجازاً، وهو فى حالة لا ينجح فيها القول، ولا ينفع فيها إقامة الحجج، إما عند جاهل لا يفهم الخطاب، أو عند وضيع لا يرهب الجواب، أو ظالم سليط يحكم بالهوى، ولا يرتدع بكلمة التقوى [كتاب الصناعتين ص٢٤] .

(6) كما قال أبو العتاهية : ما كل نطق له جواب ... جواب ما يكره السكوت [ديوانه ص ٩٧] .
وقال معاوية - رضي الله عنه - لابن أوس : " ابغ لى محدثا، قال : أو تحتاج معى إلى محدث، قال : أستريح منه إليك، ومنك إليه، وربما كان صمتك فى حال أوفق من كلامك وله وجه آخر، وهو قولهم : كل صامت ناطق من جهة الدلالة، وذلك أن دلائل الصنعة فى جميع الأشياء واضحة والموعظة فيها قائمة وقد قال الرقاش : سل الأرض، من شق أنهارها، وغرس أشجارها، وجنى ثمارها، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتبارا، ولما مات الإسكندر، وقف عليه بعض اليونانيين فقال : قد طالما وعظنا هذا الشخص بكلامه وهو اليوم لنا بسكوته أوعظ، فنظم هذا الكلام أبو العتاهية فى قوله :

وكانت فى حياتك لى عظاة ... وأنت اليوم أوعظ منك حيا

[كتاب الصناعتين ص٢٤]

قال ابن رشيق:

سكت له ضنّا بعرضى فلم أجب ورب جواب فى السكوت بليغ

وقال:

أيهـــا الموحـــى إلينـــا نفشـــة الصِّلِ الصمـــوت
مـــا سكتنا عنـــك عيـــا رب نطق فى السكوت [1]

والنبى ﷺ حث على السكوت إلا عن خير، وبين أن ذلك من الإيمان، فـ"عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت " [2] لذلك قـــال حسان بن ثابت:

فقل حسناً وأمسك عن قبيح ولا تنفك عن سوء صموتا [3]

وأوضح ﷺ أن الكلام إذا أفصح عن خطأ فى المعتقد فإن السكوت أفضل منه ، فـ (عن ابن عمر – رضى الله عنهما – أنه أدرك عمر بن الخطاب فى ركب وهو يحلف بأبيـــه ، فنـــاداهم رسول الله ﷺ : ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمـــن كـــان حالفـــاً فليحلـــف بـــالله أو ليصمت)[4].

وفى مسند الإمام أحمد (عن سعد بن عبيدة قال: كنت مع ابن عمر فى حلقـــة ، فـــسمع رجلا فى حلقة أخرى وهو يقول: لا وأبى ، فرماه ابن عمر بالحصى ، وقال : إنما كانت يمين عمـــر فنهاه النبى ﷺ عنها وقال: إنما شرك) [5] .

([1]) العمدة ١/٢٤٣، ٢٤٤ .
([2]) صحيح مسلم ص ٢٥ كتاب : الإيمان . باب : الحث على إكرام الجار والضيف ، ولزوم الصمت إلا عن خير وكون ذلك كله من الإيمان، ط دار ابن الهيثم .
([3]) ديوان حسان بن ثابت ص٨٥ ، ط دار صادر بيروت .
([4]) صحيح مسلم ص٤٢٣ كتاب الإيمان . باب النهى عن الحلف بغير الله .
([5]) مسند الإمام أحمد ٢/٥٨ ، ط : دار الفكر .

كما أوضح ﷺ أن السكوت أحيانا يفصح عن رضا الساكت عما سكت عنه، إذ يعد السكوت منه دليل الإقرار والرضا . فـ " عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال: الثيب أحق بنفسها من وليها، والبكر تستأمر، وإذنها سكوتها " وفى رواية: " عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن الجارية ينكحها أهلها أتستأمر أم لا؟ فقال لها رسول الله ﷺ : نعم تستأمر، فقالت عائشة : فقلت له: فإنها تستحى، فقال رسول الله ﷺ فذلك إذنها إذا هى سكتت " [1]، والنبى ﷺ يعنى بالسكوت هنا السكوت المشعر بالرضا والقبول، والمفصح عن الرغبة، أما إذا أشعر بالرفض وعدم القبول كالحزن ، وشدة البكاء ونحو ذلك امتنع العقد، ولا يعول على السكوت فى نفاذه .

وقد أشاد النبى ﷺ بالسكوت عن الشر، وجعله سببا لرحمته تعالى، إذ نراه يقول: " رحم الله من قال خيرا فغنم أو سكت فسلم " [2]، فهو يستهل حديثه بهذه الجملة الدعائية التى تفيد تأكيد الرحمة لمن كان شأنه كذلك، لأنها جاءت بصيغة الماضى المسند إلى الله تعالى .

وعندما طلب أبو ذر من رسول الله ﷺ أن يتحفه بوصاياه الغالية التى تفيده فى دينه ودنياه، قال ﷺ " عليك بالصمت، فإنه مطردة للشيطان، وعون لك على أمر دينك " [3]، فقد آثر ﷺ التعبير باسم الفعل (عليك) وهو بمعنى الزم، لما فيه من مزيد الحث والتشجيع على لزوم المغرى به، وقوله (عليك بالصمت) فيه كناية عن خيرية السكوت، صرح بها فى الجملة التعليلية بعده، وفى التصريح بالمكنى عنه مع أسلوب الكناية لون من التأكيد المعنوى، فقوله (فإنه مطردة...) جملة تعليلية تعلل الأمر بلزوم الصمت ببيان فائدته، والمأمور عادة إذا علم بفائدة الأمر كان أشد إقبالاً عليه، وامتثالا له، وهى جملة اسمية تفيد الثبوت والدوام ،وفيها شبه الصمت بآلة تطرد الشيطان تشبيهاً بليغاً .

---

(1) وفى رواية لأبى هريرة " لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن، قالوا: يارسول الله وكيف إذنها؟ قال: أن تسكت "، وهذه الأحاديث فى صحيح مسلم ص٣٤٨، ٣٤٩ كتاب: النكاح، باب استئذان الثيب فى النكاح بالنطق والبكر بالسكوت .

(2) الدرر المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة السيوطى حديث رقم ٨٩ ط الحلبى .

(3) فيض القدير . المناوى ٧٦/٣، ٧٧ حديث رقم ٢٧٩٣ .

وقد يكون سكوت المتكلم أمراً محبوباً بعيد المنال، وذلك عندما يكون المتكلم بصدد أمر مهم، فيكثر من اليقظة له، ويستعين بالتكرار الذى يوقع الرهبة فى قلوب السامعين، عندها يتمنى السامع سكوت المتكلم خوفاً عليه وإشفاقاً، انظر ما روى: " عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ (ثلاثاً) الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور (أو قول الزور) وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت " [1]، فالصحابة تمنوا سكوته ﷺ شفقة عليه، وكراهة لما يزعجه . وقد يتضمن الكلام معنى غريبا ، يبهت السامعين ويدهشهم ، ويحملهم على السكوت ، ومن ذلك ما روى (عن أبى هريرة ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ وقف على ناس جلوس فقال: ألا أنبئكم بخيركم من شركم؟ فسكتوا.فقال ذلك ثلاث مرات.فقال رجل: بلى يا رسول الله...)[2] .

فالنبى ﷺ تأكيداً منه على ما يجب أن يسود بين المسلم وأخيه من رجاء الخير له ، استهل بيانه بهذا الاستفهام ، ويبدو أن هؤلاء الناس كانوا يخوضون فى الحديث عن الخير والشر ، وعن الخيرين والأشرار، فقطع ﷺ عليهم الكلام ببيان فصل الخطاب فى ذلك ، حيث وجه جملته إليهم بكاف الخطاب ، وهنا داخل وهمهم أنه ﷺ سوف يحكم بـ من هو خيرهم ، ومن هو شرهم ، فسكتوا سكوت المبهوت الفزع من العاقبة، وبلغ من دهشتهم وفزعهم أنهم نسوا الوقوف له ﷺ[3]، ومن ذا الذى لا يتحير ولا يرتعد ولا يرهب من أن يحكم ﷺ عليه بأنه شر الناس؟ لأنه حكم غير مردود ، وسيظل ملتصقا بصاحبه دنيا وأخرى ، فلغرابة الخبر وشدة وقعه عليهم سكتوا غير قادرين على الجواب ، حتى كرر ﷺ بيانه ثلاثاً ، عندها استجمع أحدهم شجاعته وحسن ظنه فى إيمانه ، وقال: بلى يا رسول الله .

---

(1) صحيح مسلم ص٣٢ كتاب : الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها .

(2) الجامع الصحيح للترمذى ٥٢٨/٤ حديث رقم ٢٢٦٣ كتاب الفتن ، باب منه .

(3) لذلك قال حسان بن ثابت:

وقوفى للعزيز علىّ فرض وترك الفرض ما هو مستقيم
عجبت لمن له عقل وفهم يرى هذا الجميل ولا يقوم

المعانى الدلالية للسكوت

وردت معانى عدة للسكوت فى صحيح مسلم، تؤخذ من السياق ودلالة الحال، ومن هذه المعانى:

١- السكوت : خلاف النطق، وهو أشهر معانى السكوت وأبرزها، وكثر وروده فى البيان النبوى، واختزن أسراراً ولطائف عدة ،ومن أمثلة ذلك ما جاء فى حديث أم زرع على لسان المرأة الثالثة " زوجى العشنق، إن أنطق أطلق، وإن أسكت أعلق ... " [(١)]، انظر كيف أفادت المطابقة مع السجع والجناس أنها لا تستريح معه على أى حال من الأحوال، فهى إن تكلمت أصابها الضرر بالطلاق، وإن سكتت صابرة على تلك الحال كانت عنده كالمعلقة، وهذا أيضاً شديد عليها وعن عبد الله بن عمر قال: " إنا ليلة الجمعة فى المسجد، إذ جاء رجل من الأنصار فقال: لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فتكلم جلدتموه، أو قتل قتلتموه، وإن سكت سكت على غيظ، والله لأسألن عنه رسول الله ﷺ فلما كان من الغد أتى رسول الله ﷺ فسأله، فقال: لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلا فتكلم جلدتموه، أو قتل قتلتموه، أو سكت سكت على غيظ . فقال: اللهم افتح، وجعل يدعو، فنزلت آية اللعان..." [(٢)] وواضح أن السكوت هنا كان لانتظار الوحى .

٢- ترك رفع الصوت بالكلام، ومن أمثلة ذلك ما روى (عن أبى هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا كبر فى الصلاة، سكت هنية قبل أن يقرأ، فقلت : يارسول الله ! بأبى أنت وأمى أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول ؟ قال: أقول : اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلنى من خطاياى بالثلج والماء والبرد " [(٣)] .

---

(١) صحيح مسلم ص٦٢٧ كتاب : فضائل الصحابة، باب ذكر حديث أم زرع .

(٢) صحيح مسلم ٣٨٠ كتاب: اللعان .

(٣) صحيح مسلم ص١٤٤ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب:/ ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة .

٣- السكوت بمعنى الفراغ من الشئ، ومن ذلك ما روى " عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة أحال له ضراط، حتى لا يسمع صوته، فإذا سكت رجع فوسوس، فإذا سمع الإقامة ذهب حتى لا يسمع صوته، فإذا سكت رجع فوسوس " [١]، قال العينى (ت٨٥٥هـ): " قوله إذا سكت المؤذن، أى إذا فرغ من الأذان بالسكوت عنه " [٢] .

٤- السكوت بمعنى السكون والهدوء، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ ﴾ [٣] قرأ معاوية بن قرة: ولما سكن عن موسى الغضب .. والمعنى: ولما طفئ غضبه [٤]، ومن ذلك ما روى " عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس، فصلى لهم صلاة الظهر، فلما سلم قام على المنبر، فذكر الساعة، وذكر أن قبلها أموراً عظاماً، ثم قال: " من أحب أن يسألنى عن شئ فليسألنى عنه، فوالله لا تسألوننى عن شئ إلا أخبرتكم به ما دمت فى مقامى هذا، قال أنس بن مالك: فأكثر الناس البكاء حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ ، وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول : سلونى، فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبي يا رسول الله؟ قال : أبوك حذافة [٥]، فلما أكثر رسول الله ﷺ من أن يقول: سلونى، برك عمر فقال: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولاً، قال: فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك [٦] .

---

(١) صحيح مسلم ص٩٨ كتاب : الصلاة باب: فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه .

(٢) عمدة القارئ ٣٠٧/٤ .

(٣) سورة الأعراف ١٥٤ .

(٤) انظر: الكشاف ٩٦/٢ .

(٥) وفى رواية: فقام آخر فقال: من أبي يا رسول الله ؟ قال: أبوك سالم مولى شيبة، فلما رأى عمر ما فى وجه رسول الله من الغضب قال: يا رسول الله إنا نتوب إلى الله " صحيح مسلم ٦٠٦ كتاب : الفضائل باب: توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك .

(٦) ثم قال رسول الله ﷺ أولى، والذى نفس محمد بيده لقد عرضت على الجنة والنار آنفا، فى عرض هذا الحائط فلم أر كاليوم فى الخير والشر "صحيح مسلم ص٦٠٦ كتاب: الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه .

٦- السكوت : الموت، ومن ذلك ما روى " عن أبي سعيد أن رجلاً من أسلم يقال له: ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال: إني أصبت فاحشة، فأقمه علي [١]، فرده النبي ﷺ مراراً، قال: ثم سأل قومه، فقالوا: ما نعلم به بأسا، إلا أنه أصاب شيئاً، يرى أنه لا يخرجه منه إلا أن يقام فيه الحد قال: فرجع إلى النبي ﷺ فأمرنا أن نرجمه، قال: فانطلقنا به إلى بقيع الغرقد قال: فما أوثقناه ولا حفرنا له، قال: فرميناه بالعظم والمدر والخزف، قال: فاشتد واشتددنا خلفه، حتى أتى عُرْضَ الحرة، فانتصب لنا، فرميناه بجلاميد الحرة – يعني الحجارة – حتى سكت ... " [٢]، أي مات [٣] .

---

(١) وفي رواية سليمان بن بريدة عن أبيه قال: جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله طهرني فقال: ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني، فقال رسول الله: ويحك: ارجع فاستغفر الله وتب إليه، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني، فقال النبي ﷺ مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: فيم أطهرك؟ فقال: من الزنى، فسأل رسول الله ﷺ أبه جنون؟ فأخبر أنه ليس بمجنون، فقال: أشرب خمراً ؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر، قال: فقال رسول الله ﷺ أزنيت؟ فقال: نعم فأمر به فرجم ... " صحيح مسلم ص٤٤١ كتاب : الحدود باب: من اعترف على نفسه بالزنى .

(٢) صحيح مسلم ص٤٤١ كتاب الحدود باب: من اعترف على نفسه بالزنى .

(٣) لسان العرب ٦/٣٠٤ سكت .

الأغراض البلاغية للسكوت فى صحيح مسلم

١- السكوت لانتظار الوحي

وهذا خاص بسكوته – ﷺ– وهو كثير الوقوع فى البيان النبوى، وسكوته ﷺ لانتظار الوحي يبين صدقه وأمانته المطلقة فى تبليغ وحى ربه، إذ يفيد أنه – ﷺ– بلغ وحى ربه كاملاً غير منقوص، ولم يزد فيه حرفاً واحداً، ولم ينقص منه حرفاً واحداً، فإذا نزل عليه وحى بلغه، وإذا أبطأ توقف منتظراً، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [١]، وقال:﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾[٢]، ومن السكوت لانتظار الوحي فى (صحيح مسلم) ما روى " عن يعلى بن أمية أنه قال لعمر بن الخطاب ﷺ: ليتنى أرى نبي الله ﷺ حين يترل عليه، فلما كان النبي ﷺ بالجعرانة، وعلى النبى ﷺ ثوب قد أُظل به عليه، ومعه ناس من أصحابه فيهم عمر، إذ جاءه رجل عليه جبة صوف متضمخ بطيب، فقال : يا رسول الله: كيف ترى فى رجل أحرم بعمرة فى جبة بعدما تضمخ بطيب؟ فنظر إليه النبى ﷺ ساعة، ثم سكت، فجاءه الوحى، فأشار عمر بيده إلى يعلى بن أمية: تعالى، فجاءه يعلى، فأدخل رأسه، فإذا النبى ﷺ محمر الوجه يغط ساعة، ثم سرى عنه ،فقال: أين الذى سألنى عن العمرة آنفا؟ فالتمس الرجل، فجئ به، فقال ﷺ: أما الطيب الذى بك فاغسله ثلاث مرات، وأما الجبة فانزعها، ثم اصنع فى عمرتك ما تصنع فى حجك " [٣]، ففى هذا الحديث نجد أحد الصحابة يطلب الفتيا من رسول الله ﷺ فيمن أحرم بعمرة وجسده ملطخ بالطيب، ونلحظ أن الرسول ﷺ لم يجبه عقب سؤاله مباشرة، بل تمهل حتى سكت ساعة، منتظراً الوحى، لكى يعطى السائل الإجابة، وهذا أصل عظيم من أصول التعليم، إذ على المعلم أو المفتى إذا لم يعرف الحكم فى مسألة ما تعرض لها، عليه أن يمسك حتى يتبين له، ولو أخذنا بهذا الأدب النبوى لصلح حالنا، والرسول ﷺ بعدما جاءه الوحى

---

(١) النجم ٣، ٤ .

(٢) الحاقة ٤٤، ٤٥، ٤٦ .

(٣) صحيح مسلم ص٢٨٥، كتاب :الحج، باب: ما يباح للمحرم بحج أو عمرة، وما لا يباح، وبيان تحريم الطيب عليه .

بما يمكنه من الإجابة لم يصدر فتواه من الحكم الشرعي إلا بعد استدعاء من طلب الفتوى بادئ ذى بدء قائلا: أين الذى سألنى عن العمرة آنفا؟ وذلك لتطييب خاطره، وتقديراً لاهتمامه بالبحث عن الحكم الشرعى، وحتى لا يظن أن النبى ﷺ تغافل عنه، وقد رنا بصره، وهفا فؤاده، وتشوقت نفسه إلى الإجابة منه ﷺ فالسكوت عقب السؤال كان لانتظار الوحى أملا فى الوصول إلى الحقائق حيث يزول اللبس، وينكشف ما خفى .

ومن ذلك أيضاً ما روى " عن عبد الله قال: بينما أنا أمشى مع النبى ﷺ فى حرث، وهو متكئ على عسيب، إذ مر بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح، فقالوا: ما رابكم إليه؟ لا يستقبلكم بشئ تكرهونه؟ فقالوا: سلوه، فقام إليه بعضهم فسأله عن الروح، قال : فأسكت النبىﷺ فلم يرد عليه شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، قال: فقمت مكانى، فلما نزل الوحى قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ "[1]، فهذا الحديث يكشف عن خبث اليهود، وما كانوا يتطلعون إليه من مضايقته ﷺ وتعجيزه، حيث دار بأذهانهم الخبيثة هذا السؤال الماكر، الذى لا توجد إجابته فى التوراة أو الإنجيل؛ لاعتقادهم أن محمدا لا يمكن أن يكون قد اطلع على ما فيهما، وقصدهم من ذلك إفحامه ﷺ ، ونلحظ أن إجابته ﷺ كانت أشد إفحاما لهم، حيث سكت بعقب السؤال ، ولم يرد عليهم بشئ منتظراً إجابة السماء، وهذا دليل صدق نبوته، إذ لو كان ﷺ مدعيا كما اتهموه، لحاول أن يدافع عن نفسه باختلاق إجابات، يعتقد أن من شأنها أن تسكتهم عنه، ولما جاءه الوحى نطق ﷺ بالجواب القاطع فى ذلك، حيث قال رب العزة فى قرآن يتلى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [2]، أى مما استأثر الله بعلمه، عندها لم يكن لليهود إلا الندم على سؤالهم، ونلحظ أن التعبير جاء بـ (أسكت النبى ﷺ)، وفرق بين " سكت " و " أسكت " إذ " يقال : تكلم الرجل ثم سكت بغير ألف، فإذا

([1]) صحيح مسلم ص٧١٠ كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: سؤال اليهود النبى ﷺ عن الروح، وقوله تعالى:﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ .

([2]) الإسراء ٨٥ .

انقطع كلامه فلم يتكلم قيل : أسكت " [1]، وقد نص العلماء على أن الوحى فى هذه الحادثة أبطأ عن رسول الله ﷺ وتحمل ﷺ هذه المدة بصبر وإيمان وثقة فى نصر ربه.

ومن ذلك أيضا ما روى " عن أبي سعيد الخدرى قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر، وجلسنا حوله، فقال: إن مما أخاف عليكم بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها، فقال رجل: أو يأتى الخير بالشر يا رسول الله؟ قال: فسكت عنه رسول الله ﷺ فقيل له: ما شأنك تكلم رسول الله ولا يكلمك؟ قال: ورأينا أنه ينزل عليه، فأفاق يمسح عنه الرحضاء، وقال أين هذا السائل ؟ وكأنه حمده، فقال: إنه لا يأتى الخير بالشر، وإن مما ينبت الربيع يقتل أو يلم إلا آكلة الخضر ،فإنها أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت، وإن هذا المال خضرة حلوة، ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل.... " [2]، فالحديث لم يبدأ بما تجرى عليه الرواية غالبا، وإنما بدأ بوصف الحالة التى كانوا عليها لما سمعوا الحديث وفيه يحذر النبى ﷺ أمته من خير على غير العادة أيضاً، ثم هو مع تحذيره لها من هذا الخير لا يزهدها فيه، ولا يصرفها عنه، ونلحظ أن الحديث جاء فى جملة، أعقبها سؤال وجواب، وكأن الجواب شرح لهذه الجملة ،والجملة هى قوله ﷺ: " إن مما أخاف عليكم بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها " ولما كان ظاهر هذه الجملة اختلاط الشر بالخير، أو اهتزاز ثوابت الأشياء حتى يكون الخير بابا من أبواب الشر، بادر الصحابى بالسؤال قائلاً: أو يأتى الخير بالشر يا رسول الله؟ فالهمزة للاستفهام ،وهو للاسترشاد والتوضيح، والواو للعطف، وقد ظهرت أهميتها فى بلاغة الحذف لما جالت به نفس السائل، ودلالتها عليه، والتقدير: هل تهتز ثوابت الأشياء وتتحول وتتغير حتى يكون الخير بابا من أبواب الشر؟ [3]، وسكوت النبى ﷺ بعقب السؤال كان

([1]) لسان العرب ٣٠٣/٦ سكت .

([2]) صحيح مسلم ص٢٤٩ كتاب : الزكاة، باب : تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا .

([3]) وهذا السؤال مصدره ما شاب كلام رسول الله ﷺ من مفارقة غير مألوفة ؛ لأن كلامه ﷺ لم يجعل الخوف مما يألف الناس الخوف منه حيث لم يقل : إن مما أخاف عليكم الفقر أو العدو أو الفرقة .. وإنما قال: أخاف عليكم من النعمة والثروة، ولهذا جاء الجواب توضيحاً للغريب الذى لم يؤلف، ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخارى د/ أبو موسى ص٢٤٩ .

لانتظار الوحى، ونظراً لأهمية الأمر لم يبطئ الوحى، إذ أنزل على رسول الله ﷺ جوابه، ليكون جواباً حاسماً قاطعا، حتى لا يقع الناس فى عمياء يلتبس فيها الهدى بالضلال، والخير بالشر، والفضائل بالرذائل (١) . ثم نلحظ أنه ﷺ بادر بالسؤال ليجيبه (فأفاق يمسح عنه الرحضاء – العرق – وقال: أين هذا السائل) لأنه ﷺ لا يجوز فى حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة .

ونلحظ فى جوابه ﷺ أنه " مثل ضربه لمن أعطى من الدنيا حظاً فألهاه الاشتغال به، والاستكثار منه والحرص عليه، عن صلاح دينه فيكون فيه هلاكه، كما أن الماشية إذا لم تقتصد فى مراعيها حبطت بطونها فماتت أو كادت أن تموت " (٢).

٢–السكوت لكراهة السؤال، وأنه لا مجال له

وذلك " حين يكون الخطأ الأسلوبى ناشئا عن علم مناسبة السؤال للمقام ؛ لكون الإجابة – إن حصلت – موقعة فى أمر يوجب المشقة والحرج، لما يتعلق به من صعوبة التنفيذ والالتزام "(٣).
ومن ذلك ما روى " عن أبى هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ : لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم، ثم قال:ذرونى ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شئ فدعوه "(٤)، فالرسول ﷺ عندما بين للناس أن الحج واجب عليهم، أسرع أحد الصحابة إلى السؤال عن عدد مرات الحج فى حياة الإنسان، ونلحظ طىّ السائل، وعدم ذكره فى هذه الرواية إذ لا أهمية له، ولا حاجة للناس به، وهو مسلك فى لغة العرب حميد، فالسؤال هو المقصود، لذلك نلحظ

---

(١) شرح أحاديث من صحيح البخارى ص٢٤٨ .

(٢) ينظر: جمهرة الأمثال . أبو هلال العسكرى تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش ٦/١ ط أولى ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م المؤسسة العربية الحديثة بالقاهرة .

(٣) الخصائص البلاغية واللغوية فى أسلوب الحديث النبوى الشريف د/ فتحية محمود فرج العقدة ص٥١ ط ٥١ أولى ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م، الأمانة .

(٤) صحيح مسلم ص٣٣٠، كتاب الحج، باب: فرض الحج مرة فى العمر .

أن السائل لم يقدم النداء لاهتمامه بهذا الأمر، فتقديم ما قدم دليل على دقة التركيب، ونظم الكلام على ما فى النفس من الترتيب، وهذا السؤال (أكل عام؟) لإفادة أن المسئول عنه مجهـــول، وأن السائل فى شوق ولهفة إلى معرفته ،ونلحظ أن الرسول ﷺ سكت عنه، ولم يجبه ؛ لأن السكوت عن الجواب هنا أقوى جواب وأبلغه، ومن شدة حرص الصحابي على المعرفة نراه يكرر السؤال ثلاثـــاً، كل ذلك والرسول ﷺ ساكت ؛ لأنه أراد منه أن يسكت، وينزجر ويراجع نفسه، وهو عربى مبين يعلم أن الأمر يؤدى لمرة واحدة، ولا زيادة عليها إلا بدليل [1]، ولو كان الأمر يحتـــاج إلى بيـــان، لأبان عنه ﷺ بغاية الإيضاح وغاية البيان، لكونه معروفاً لديهم بالبيان فى تبليغ الأحكام، فالسكوت منه ﷺ على الرغم من إعادة السؤال ثلاث مرات أبلغ من الكلام، وهو يدل على إنكار الـــسؤال وكراهته وعدم الرضا عنه، إذ لا مجال له، ولا يصح أن يوجد أصلاً، ولما تكرر السؤال والسكوت كان الأمر فى حاجة إلى بيان وتعليل، فجاء قولهﷺ : (لو قلت نعم لوجبـــت، ولمـــا اســـتطعتم)، فجاءت " لو " لتدل على تعليق الامتناع على ممنوع، ولتشير إلى أن " لو " تفتح باب الـــشيطان ولو جاءت " نعم " لوقع السائل، وغيره من الأمة فى حرج دائم لا قدرة لهم عليه، لما تحملـــه مـــن معنى الإلزام الواجب لغير الممكن، ولو جاءت " لا " لأدى ذلك إلى حرمان المستطيع من ثـــواب المتطوع بالحج، حيث حث ﷺ على متابعة الحج والعمرة [2]، ثم يختم الحديث بالحث على عدم إثارة الأسئلة والتنطع فيها، لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [3] وعليهم أن يذروه مع ربه ما دام الوحى لم يترل بشىء، حتى لا يترل بأمر لا يطيقونه .

وقد تأتى كراهة السؤال من أن المسئول منشغل بأمر مهم، يريد أن يبلغه ولا يرغب أن يقاطعه أحد، ويكون السؤال لا تعلق له بهذا الأمر المهم، فإذا وقع السؤال كان السكوت من الرفق بالسائل، وعدم تعنيفه، وهو من البلاغة بمكان، ومن ذلك ما روى " عن أنس بن مالك، أن رجلاً سأل النبى ﷺ قال: متى تقوم الساعة؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ هنيهة، ثم نظر إلى غلام بين يديه

([1]) ينظر: كتاب الطراز . العلوى ص٥٣١، ط دار الكتب العلمية – بيروت .

([2]) ففى الحديث: " تابعوا بين الحج والعمرة ؛ فإنهما ينفيان الفقر والذنوب " مجمع الزوائد ومنبع الفوائد . الهيثمى ٢٧٧/٣ مكتبة القدسى .

([3]) المائدة ١٠١ .

من أزد شنوءة فقال: إن عُمّر هذا، لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة " [1]، فالصحابى هنا يسأل النبى ﷺ عن وقت قيام الساعة، والنبى ﷺ لا يجيبه على الفور، لكراهته – ﷺ – لهذا السؤال ولعدم العلم به ؛ لأنه مما استأثر الله تعالى بعلمه، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾[2] فالسكوت عن الجواب له دلالة فى كراهته السؤال، وكف السامعين عنه، وأنه لا مطمع لأحد فى التطلع إليه، لكنه – ﷺ – لما رأى إكثار الصحابة من هذا السؤال، لفت أنظارهم إلى الأهم، وهو ضرورة الاستعداد لها لقرب وقوعها، وهو ما يسميه البلاغيون " الأسلوب الحكيم " حيث نلحظ أنه – ﷺ – بعد سكوته هنيهة، تنزل درجة فيما يتعلق بأمر الساعة، حيث أخبر عن تحققها وقرب وقوعها، بقوله – وقد نظر إلى غلام – (إن عمر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة) وهذا الجواب من باب ما لا يدرك كله، لا يترك كله، فإن غُيّب عن المكلفين علم موعدها فليكن الاهتمام بالاستعداد لها ما دام وقوعها أمراً مؤكداً، أو ليكن البحث عن علاماتها التى يستدل بها على قرب وقوعها كما فى جوابه – ﷺ – لجبريل عندما سأله: " متى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان " [3]، وفى رواية البخارى من حديث أبى هريرة قال: " بينما النبى ﷺ فى مجلس يحدث القوم جاءه أعرابى فقال: متى الساعة... " [4]، فالأعرابى وجه سؤاله أثناء مجلسه – ﷺ – وأثناء حديثه للقوم، ولما كان النبى ﷺ يكره السؤال عن هذه المسألة بخصوصها [5] . وكان منشغلا بالحديث مع القوم، والسؤال لا تعلق له بالحديث ،لم يلتفت إليه ﷺ، ولم يصغ لسؤاله،

---

(1) صحيح مسلم ص٧٤٧ كتاب:الفتن وأشراط الساعة، باب : قرب الساعة .

(2) الأعراف ١٨٧، وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ لقمان من الآية ٣٤، وقال: ﴿ إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ النازعات ٤٤ .

(3) صحيح البخارى ٢١/١ حديث رقم ٥٠ كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبى ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبى له .

(4) صحيح البخارى ٢٣/١ حديث رقم ٥٩ كتاب : العلم، باب: من سئل علماً وهو يشتغل فى حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل .

(5) بدليل قول بعض الصحابة: سمع ما قال فكره ما قال .

واستمر فى حديثه إلى أن فرغ منه، ثم سأل عن السائل وأجابه، فسكوته ﷺ عن الإجابة عقب السؤال له دلالات، منها كراهة السؤال، فهو أمر غير مرغوب فيه من الله تعالى، وهو ما تومئ إليه الآيات [1]، ومنها تعليم أمته، حيث لم يزجره ﷺ ولم ينهه عن هذا السؤال رفقا به، وإرشادًا له ؛ لأنه كان من الأعراب، وهذا منهج تربوى حكيم سبق به الإسلام سائر الطرق التربوية [2] . ومنها : أن سكوته ﷺ لم يكن غضبا من شخص السائل، وإنما شفقة عليه ورحمة به وبغيره، كما فى الحديث الأول حيث لم يوجه السائل فقط، وإنما وجه السائل وأمته كلهم أجمعين، أو لفتا إلى الأهم وتوجيه الأذهان إليه، والاستعداد له كما فى الحديث الثانى .

ومن السكوت لكراهة الكلام أيضاً ما روى " عن عبد الله بن شقيق العقيلى قال: قال رجل لابن عباس: الصلاة فسكت، ثم قال : الصلاة فسكت، ثم قال: الصلاة، فسكت، ثم قال : لا أم لك، أتعلمنا بالصلاة وكنا نجمع بين الصلاتين على عهد رسول الله ﷺ ؟ " [3]، وفى رواية " خطبنا ابن عباس يوما بعد العصر حتى غربت الشمس وبدت النجوم، وجعل الناس يقولون : الصلاة . الصلاة قال: فجاءه رجل من بنى تميم لا يفتر ولا ينثنى : الصلاة . الصلاة . فقال ابن عباس: أتعلمنى بالسنة؟ لا أم لك، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ جمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء . قال عبد الله بن شقيق : فحاك فى صدرى من ذلك شئ، فأتيت أبا هريرة فسألته ، فصدق مقالته "[4]، وهذه الرواية توضح سبب ورود هذا الحديث ، فقد " كان ابن عباس فى أمر مهم من أمور المسلمين يخطبهم فيما يحتاجون إلى معرفته ، ورأى أنه إن قطعه ونزل فاتت مصلحته ،

---

(1) قال تعالى:﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ النازعات ٤٢ ، وقال: ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ﴾ الأعراف ١٨٧ .

(2) وقيل: " إنما لم يجبه ﷺ لأنه يحتمل أن يكون لانتظار الوحى، أو يكون الرسول ﷺ مشغولاً بجواب سائل آخر، ينظر: الكواكب الدرارى بشرح صحيح البخارى . الكرمانى ٢/٥، ٦ ط: دار إحياء التراث، عمدة القارى العينى ٢/٧ .

(3) صحيح مسلم ص١٧٠ كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب: الجمع بين الصلاتين فى الحضر .

(4) المرجع السابق .

فكان ذلك عنده من الحاجات التى يجوز فيها الجمع، فإن النبى ﷺ كان يجمع بالمدينة لغير خوف ولا مطر بل للحاجة تعرض له [1]، لهذه العلة سكت ابن عباس مرارا ، لعل المتكلم يدرك أن كلامه فى غير موضعه، وأن ابن عباس لا يجهل ما يفعله، وكأن سكوته فيه تنبيه للمتكلم أن يكون على حصافة ولو دعية، تجعله يدرك تماما متى يتكلم ، فلما استمر الرجل فى كلامه (الصلاة .الصلاة) ولم يسكت ولم يزجر أو يراجع نفسه، وهو عربى يدرك علل السكوت فى الكلام، علم ابن عباس أن السكوت عن إجابته فى حاجة إلى بيان وتفصيل، فقال له: " لا أم لك " ، وهو أسلوب يوحى بالتعجب من حاله ، كيف لا يفطن من المرة الأولى أو الثانية إلى علة السكوت [2] ، ثم يستفهم منه على جهة الإنكار والتوبيخ (أتعلمنا بالصلاة وكنا نجمع بين الصلاتين على عهد رسول الله) إنه رد حكيم وجواب بليغ مستمد من بلاغة رسول الله ﷺ

٣-السكوت للإحساس بالخطأ

وذلك كأن يطلب شخص ما من آخر أمراً ليس من حقه ، أو يراه على صورة منهى عنها ، فعندما يتبين له الأمر يتنبه إلى خطئه ، ويكون السكوت أبلغ وسيلة للتعبير عن الإحساس بالخطأ ، ثم يرى أن السكوت غير كاف فيعتذر مما يصلح أمر ما وقع فيه، ومن ذلك ما روى " عن عائشة – رضى الله عنها – أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة ، فقال رسول الله ﷺ: أتشفع فى حد من حدود الله؟ .... " [3] ، هنا نلحظ تواصل الأحداث وتتابعها ، فلما سرقت هذه المرأة المخزومية، أخذت قريش تفكر فى رفع الحد عنها قبل أن يقضى به رسول الله ، فالعطف

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية، ففى الحديث عن جابر قال: " جمع رسول الله ﷺ بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء بالمدينة للرخص من غير خوف ولا علة " أخرجه الطحاوى، وينظر: إرواء الغليل ٣٧/٣ .

(2) قال ابن منظور: " وفى حديث ابن عباس أنه قال لرجل : لا أم لك قال: هو ذم وسب أى أنت لقيط لا تعرف لك أم ، قيل: قد يقع مدحا بمعنى التعجب منه "، لسان العرب ٢١٨ امم .

(3) صحيح مسلم ص٤٣٩ كتاب الحدود باب: قطع السارق الشريف وغيره ، والنهى عن الشفاعة فى الحدود.

بالفاء (فقالوا ... فكلم فقال ....) دليل على تواصل الأحداث وسرعتها، ولما كلم أسامة رسولَ الله ﷺ فى ذلك (تلون وجه رسول الله) [1] ، وهو كناية عن شدة الغضب، وقال على الفور: (أتشفع فى حد من حدود الله ؟) بهذا الاستفهام الإنكارى، والمعنى: لا ينبغى أن يكون ذلك منك ، والقصد بيان خطورة الخطأ الذى وقع فيه ، وهذه خاصية الاستفهام الإنكارى : يقول الإمام عبد القاهر : (وأعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام فى مثل هذا بالإنكار ، فإن الذى هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيى بالجواب)[2] ، وهنا يدرك أسامة ما وقع فيه من خطأ، ويلجمه الجواب، ويشعر أنه أثم وارتكب خطأ فى حق الله ، وحق نفسه ومجتمعه ، فيعدل عن مطلبه ، ويدعو رسول الله ﷺ أن يستغفر له (استغفر لى يا رسول الله) ولإحساسه بالخطأ وانشغاله بإصلاحه لم يقدم النداء، فإن تقديم طلب الاستغفار دليل على دقة التركيب،ونظم الكلام على ما فى النفس من الترتيب.

ومن ذلك أيضا ما روى " عن عبد الله بن عمرو قال: رأى النبى ﷺ علىّ ثوبين معصفرين، فقال: أأمك أمرتك بهذا؟ قلت: أغسلهما . قال : بل أحرقهما " [3] . فقوله – ﷺ– أأمك أمرتك بهذا ؟ استفهام إنكارى توبيخى، أى ما كان ينبغى لك لبس هذا، وهنا يستشعر عبد الله الخطأ، ويلجمه الموقف، ثم يعرض على النبى ﷺ ما يصلح به ثوبيه فيقول:" أغسلهما "فيزول أثر الصبغ منهما يا رسول الله ، فيجيبه ﷺ بأن يضرب عن غسلهما،ويسارع بإحراقهما،وذلك لأن الغسل ليس كافيا لإزالة الصبغ وآثاره .

ومن السكوت للإحساس بالخطأ أيضاً ما روى " عن عروة بن الزبير قال: كنت أنا وابن عمر مستندين إلى حجرة عائشة، وإنا لنسمع ضربها بالسؤاك تستن، قال: فقلت: يا أبا عبد الرحمن : أعتمر النبى ﷺ فى رجب ؟ قال: نعم، فقلت لعائشة: أى أمتاه ألا تسمعين ما يقول أبو عبد

([1]) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، النووى ص٤٠٦ .باب: تحريم الشفاعة فى الحدود.

([2]) دلائل الإعجاز ص١١٩ ، وينظر الإيضاح ص٨٢ ، شروح التلخيص ٣٠١/٢ .

([3]) صحيح مسلم ص٥٤٤ ، كتاب اللباس والزينة ، باب النهى عن لبس الرجل الثوب المعصفر .

الرحمن ؟ قالت: وما يقول؟ قلت: يقول: اعتمر النبى ﷺ فى رجب، فقالت : يغفر الله لأبى عبد الرحمن، لعمرى ما اعتمر فى رجب، وما اعتمر من عمرة إلا وإنه لمعه، قال: وابن عمر يسمع، فما قال: لا ، ولا نعم، سكت "[1]، ففى الحديث يسأل عروة عبد الله بن عمر (أعتمر النبىﷺ فى رجب ؟) فيجيبه : " نعم "، فكأنه شك فى الأمر، وأراد أن يستوثق، فعرض الأمر على السيدة عائشة، فأجابته بالنفى بعد أن دعت لابن عمر بالمغفرة (ما اعتمر النبى فى رجب) ثم إمعانا فى تأكيد كلامها قالت : (وما اعتمر من عمرة إلا وإنه لمعه) وهذا يدل على أن كلامها آكد، وإلا لما صدرت إجابتها بالقسم، ثم تلته بالنفى القاطع، ثم القصر المفيد ملازمة ابن عمر للنبى ﷺ فى عمره وهذا منها إشارة إلى ما تميزت به من قوة الحفظ، وسلامة الذاكرة، وجودة القريحة، ولهذا قال ﷺ : خذوا شطر دينكم من الحميراء "[2]،وعائشة دعت، ثم أجابت، ثم أكدت وابن عمر يسمع ولا يتكلم، كل ذلك لإحساسه بالخطأ، وكان عليه أن يراجع نفسه ليتأكد من صحة ما يخبر به، وفى سكوته ﷺ درس عظيم لعموم الأمة مؤداه : أن الحق أبلج، فإذا ظهر وجب التسليم به .

٤-السكوت لاستحضار الفهم

وهذا الغرض يتأتى فى الأمور المهمة التى يحرص المتكلم على توصيلها للسامعين، وتثبيتها فى أذهانهم، إذ السكوت أحيانا يشوق السامعين، ويجعلهم فى حالة من التطلع إلى معرفة المسكوت عنه، فإذا جاء بعد قرّ فى النفس، وثبت فى الوجدان، والسكوت هنا يكون بحسب التصعيد لدرجة التشويق، والعمدة فى ذلك ذكاء المتكلم وفطنته، ومن ذلك ما روى " عن أبى بكرة عن النبى ﷺ أنه قال: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات : ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب شهر مضر الذى بين جمادى وشعبان . ثم قال: أى شهر هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم . قال فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال: أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى . قال: فأى بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم . قال:

---

(1) صحيح مسلم ٣١٠ كتاب الحج، بيان عدد عمر النبى ﷺ وزمانهن .

(2) البداية والنهاية . ابن كثير ١٢٩/٣ ط دار الفكر .

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس البلدة؟ قلنا : بلى . قال :فأى يوم هذا؟ . قلنا الله ورسوله أعلم . قال: فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى يا رسول الله قال: فإن دماءكم وأموالكم (قال محمد: وأحسبه قال) وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا، فى شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، فلا ترجعن بعدى كفارا .... " [1]، فالرسول ﷺ يستهل حديثه بهذه الجملة الخبرية (إن الزمان قد استدار ...) ثم يذكر الأشهر الحرم، ثم يسأل صحابته ثلاثة أسئلة ، فيجيبونه عنها بقولهم (الله ورسوله أعلم) ويسكتﷺ عقب كل إجابة هنيهة، ثم يقرهم باستفهام تقريرى، كل ذلك تنبيه إلى درجة أهمية الموقف، وإشعار بأهمية ما سيرد من المضامين على أسماع المخاطبين، يقول العينى (ت٨٥٥هـ) : " لم سأل عليه الصلاة والسلام عن هذه الأشياء الثلاثة وسكت بعد كل سؤال منها؟ أجيب لاستحضار فهومهم، وليقبلوا عليه بكليتهم، وليعلموا عظمة ما يخبرهم عنه، ولذا قال بعد هذا: فإن دماءكم، إلى آخره مبالغة فى تحريم الأشياء المذكورة " [2]، فإن ما سيخبرهم به يتضمن مجموعة من القضايا التشريعية التى يترتب عليها تماسك المجتمع، والمحافظة على مبادئه الدينية، وحقوق أفراده، ولذا رأينا الأسلوب يتجه إلى ضرب من التفصيل والتحديد، وتشريك السامعين جميعا فى مضمونه، وبث العديد من عناصر جذب الذهن إلى متابعته، والعديد من الألفاظ المدوية فى الآذان بما تحمله من التحذير والوعيد، والحرص على التبليغ والصدق فى الأداء [3] .

ومن السكوت لاستحضار الفهم أيضاً ما روى " عن معدان بن أبى طلحة اليعمرى قال: لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ فقلت : أخبرنى بعمل أعمله يدخلنى الله به الجنة، أو قال: قلت: بأحب الأعمال إلى الله . فسكت، ثم سألته فسكت، ثم سألته الثالثة فقال: سألت عن ذلك رسول اللهﷺ فقال: " عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجد

([1]) صحيح مسلم ٤٣٦ كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال .

([2]) عمدة القارى ٤١٧/١، ٤١٨ .

([3]) ينظر: الخصائص البلاغية واللغوية فى أسلوب الحديث النبوى الشريف ص١٠٨ .

لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة " [1]، فالصحابى الجليل (معدان) يطلب من (ثوبان) أن يخبره عن عمل فيعمله فيدخله الله به الجنة ويباعده عن النار، فالصحابى متعلق بالآخرة، ويلتمس لنفسه السعادة فيها، بدخول جنة يكون فيها رفيقا للنبيين والصديقين والشهداء، ونلحظ أن الصحابى لا يطلب مجرد عمل، إنما يطلب معرفة (أحب الأعمال) ومعلوم أن صيغة أفعل التفضيل إذا أضيفت إلى معرفة دلت على الأفضلية المطلقة، كما نلحظ أن (ثوبان) لم يجبه فور الطلب، وإنما سكت حتى كرر الطلب ثلاثا، وتكرر الطلب يدل على شدة حرص الصحابى على المعرفة للعمل والفوز بالآخرة، وسكوت (ثوبان) إشعار بأهميته، وعظمة المطلوب وفخامته، فليس شئ أعظم من عمل تكون نتيجته الجنة، أو ليس شئ أعظم من عمل يحبه الله، وحب الله لهذا العمل دليل على الرضا به، وحسن الإثابة عليه، ومن هنا جاء سكوت (ثوبان) ليشد من انتباه (معدان) ويحقق أعلى درجات التشويق عنده، حتى إذا جاء المطلوب صادف نفسا مهيأة فاستقر فيها، وظل عالقا بالذهن، ولا نبعد إذا قلنا إن سكوته كان ليتذكر ما قاله رسول الله ﷺ له عندما سأله هذا السؤال .

٥- السكوت للعجز عن الجواب والتشويق لمعرفته

وهذا الغرض يتأتى فى مسائل العلم النافعة التى يحرص المتكلم على توصيلها للمخاطبين والسامع على معرفتها، ومن ذلك ما روى " عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوما لأصحابه: أخبرونى عن شجرة، مثلها مثل المؤمن، فجعل القوم يذكرون شجراً من شجر البوادى، قال ابن عمر: وألقى فى نفسى أو روعى أنها النخلة، فجعلت أريد أن أقولها، فإذا أسنان القوم، فأهاب أن أتكلم، فلما سكتوا . قال رسول الله ﷺ : هى النخلة " [2]، فالرسول ﷺ فى هذا الحديث يقصد إلى بيان حقيقة المؤمن، وأنه كله خير، فيعمد إلى وجوه من إثارة الحس، وشغل الوجدان، للتنبيه إلى هذه الحقيقة، ويظهر ذلك من خلال تواضعه لأصحابه ومسامرته إياهم، وإلغازه معهم بمسائل العلم

---

(1) صحيح مسلم ص١٢١ كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه .

(2) صحيح مسلم ص٧١٤ كتاب: صفة القيامة والجنة والنار ، باب: مثل المؤمن مثل النخلة .

النافعة، حيث يطلب منهم أن يخبروه عن شجرة جمعت كثيراً من صفات المؤمن، فالمؤمن وإن كان لا يماثله شئ من الجمادات، ولا يعادله أى شئ من النبات وسائر المخلوقات إلا أن كثرة الوجوه الجامعة بين المؤمن والنخلة هى التى سوغت التشبيه، ونلحظ أن طلبه ﷺ لم يكن من باب اللغز المعمى فيه على المخاطبين، لأن مراده الإثارة والتنبيه إلى المراد ليستقر فى الأذهان، ولذا فقد ذكر أموراً تعين على المطلوب، ففى رواية (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثونى ما هى؟) [1]، فالسؤال بعيد عن الغموض الذى فيه جهالة مطلقة، لأنه ﷺ كان ينهى عن الاغوطاط، أو ما خرج على سبيل التعنت والتعجيز، فالرسول ﷺ مهد لما يقوله بإثارته للنفس مخاطبا الحس والوجدان، حتى تتحرك المشاعر، وينسال الشوق إلى الجواب بعد انحسار العقول فى حدة الانكشاف عن الحقيقة، ونلحظ أن الصحابة بعد الطلب ذهبت أفكارهم إلى شجر البوادى، وذهلوا عن النخلة، حيث جعل كل واحد منهم يفسرها بنوع من الأنواع، وقال ابن عمر (فوقع فى نفسى أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا) [2]، وقول ابن عمر (فلما سكتوا قال ﷺ : هى النخلة) يوحى سكوتهم بأنهم قد حاروا جواباً، وأعياهم الجواب، حيث عجزوا عن معرفته بدليل (فجعل القوم يذكرون شجراً من شجر البوادى) وبالتأكيد لم تكن النخلة من بين ما ذكروه، ولذا أجابهم ﷺ وسكوت الصحابة بعد عجزهم عن الجواب، يوحى بالتشويق لمعرفته، والتلهف إليه، وفيه درس تربوى لعموم الأمة،فالإنصات للمعلم،والرغبة فى المعرفة أساس استيعاب العلم.

ومن ذلك أيضاً ما روى " عن حذيفة قال: كنا عند عمر، فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن ؟ فقال قوم: نحن سمعناه . فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل فى أهله وجاره ؟ قالوا: أجل قال تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع النبى ﷺ يذكر الفتن التى تموج موج البحر ؟ قال حذيفة: فأسكت القوم، فقلت : أنا، قال: أنت، لله أبوك قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول : تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا ... " [3]، فسيدنا عمر يوجه إلى

---

(1) صحيح البخارى ١/٢٤ حديث رقم ٦١ كتاب: العلم، باب: قول المحدث حدثنا وأخبرنا وأنبأنا .

(2) صحيح مسلم ص٧١٤ كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: مثل المؤمن مثل النخلة .

(3) صحيح مسلم ص٤٥ كتاب : الإيمان : باب: أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، وأنه يأرز بين المسجدين .

المخاطبين سؤالا يستجمع به قدراهم الذهنية، فلما أجابوه بغير مقصوده، سألهم سؤالا آخر تولد من إجابتهم، ولما أجابوه، وعلم أهم بعيدون عن تصور مقصوده تنزل درجة فى البيان، حيث زاد سؤاله وضوحا بقوله (أيكم سمع النبى يذكر الفتن التى تموج موج البحر؟) فهو أولا جمع أذهانهم ووجهها إلى الفتن، وهذا يدل على براعته، وحسن استهلاله، ثم تدرج إلى مقصوده بذكر أمور تعين على معرفته، فأتى بهذه الصورة البيانية التى تدل على كثرة الفتن وشدها وشيوعها، فهى تدفع بعضها بعضا، وتموج كموج البحر فى تتابعها واضطرابها، هكذا استجمع ﷺ بأسلوبه أسباب التشويق، وجذب الانتباه، عندئذ قال حذيفة (فأسكت القوم) أى أطالوا فى السكوت والانصات تشوقا، وهذا السكوت يدل على عدم معرفتهم أو سماعهم بهذه الفتن، وأهم يرغبون فى التطلع إلى معرفتها والإلمام بها، ليكونوا على حذر تام من أسباها، والسكوت هنا له ملحظ بلاغي دقيق مؤداه : أن السكوت عند عدم المعرفة لا يسلب الإنسان قيمته، ولا يضع منها، وأنه أفضل من التخرص والظنون أو الكذب .

٦- السكوت لإظهار الرحمة بالمخطئ

وإظهار الرحمة والشفقة بالمخطئ لا تتكشف بالسكوت وحده، وإنما يسهم فى بيان ذلك الفعل الذى يتلو السكوت، ويجب أن نعلم أن المخطئ هنا لم يقع منه ذلك الخطأ مرارا، وأنه لم يجاهر به، بل ندم واشتد أسفه، ومن ذلك ما روى " عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: هلكت يا رسول الله، قال وما أهلكك ؟ قال: وقعت على امرأتى فى رمضان . قال هل تجد ما تعتق رقبة؟ قال: لا . قال : فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ .قال: لا ..قال: فهل تجد ما تطعم ستين مسكيناً؟ قال: لا، قال: ثم جلس . فأتى النبى ﷺ بعرق فيه تمر، فقال: تصدق بهذا ... "[1]، هذا الحديث يحكى قصة رجل من بنى بياضة اختلف المحدثون فى اسمه، والراجح أنه سلمان بن صخر، هذا الرجل جاء يستفتى النبىﷺ فيما وقع منه، مستهلا كلامه بقوله (هلكت يا

([1]) صحيح مسلم ص٢٦٦ كتاب: الصوم، باب تغليظ تحريم الجماع فى نهار رمضان على الصائم، ووجوب الكفارة الكبرى فيه وبيانها، وأنها تجب على الموسر والمعسر، وتثبت فى ذمة المعسر حتى يستطيع .

رسول الله) [1]، فقدم الهلاك على النداء للاهتمام بالمقدم، وهنا يسأله ﷺ عن سبب هلاكه (وما أهلكك؟) فيجيب الصحابى (وقعت على امرأتى فى رمضان) وهى كناية عن أنه جامع زوجته فى نهار رمضان، وهو صائم [2]، متعمدا، لأن الهلاك مجاز عن العصيان المؤدى إلى ذلك، ولأن النبى ﷺ أوجب عليه الكفارة، وتدرج بها معه من عتق الرقبة إلى الصيام ثم الإطعام، ولما أجابه الصحابى بأنه لا قدرة له على واحدة منها سكت ﷺ قليلاً يفكر – من منطلق الرحمة – فى إعانته [3]، ونلحظ أن الصحابى لم ينص على سكوته ﷺ وإنما دل عليه السياق المقالى، وما جاء فى رواية البخارى أنه بعد الثالثة قال (فمكث النبى ﷺ فبينا نحن على ذلك، أُتى النبى ﷺ بعَرَق فيها تمر – والعرق : المكتل – قال: أين السائل ؟ فقال: أنا، قال : خذها فتصدق به ...) [4]، فسكوت النبى ﷺ ثم مبادرته بالسؤال عنه فور إتيانه بالعرق، دلالة على إظهار الرحمة به، والعمل على إعانته بتخليصه من محنته، وخروجه من ورطته، لأنه لم يكن هازلاً ولا مستخفا بالأمر، بل إن تأنيبه نفسه، وشعوره بخطئه واضح من قوله (هلكت) وفى بعض الروايات مزيد من التوضيح لحال الرجل عند مجيئه للنبى ﷺ فقد ذكرت الروايات أنه جاء وهو ينتف شعره، ويدق على صدره، ويلطم وجهه، ويحثى التراب على رأسه [5]، ولعل ذلك كله من شدة جزعه، وحزنه على ما وقع منه، لما يشعر به الحال من شدة الندم وصحة التوبة، وذلك جائز فى مصيبة الدين .

---

(1) وفى رواية " احترقت " وهذه تفسر رواية الهلاك، وكأنه لما اعتقد أن مرتكب الإثم يعذب بالنار أطلق على نفسه أنه احترق لذلك، ومراده أنه سيحرق بالنار يوم القيامة، فجعل المتوقع كالواقع، وبالغ فعبر بلفظ الماضى.

(2) بدليل رواية " أصبت أهلى " وفى رواية " وطئت امرأتى " .

(3) ولم يعاقبه ﷺ أو يعزره مع اعترافه بالمعصية، لأنه جاء مستفتيا ولو عاقبه ﷺ لترك الناس الاستفتاء وهى مفسدة عظيمة يجب دفعها .

(4) صحيح البخارى كتاب الصوم، باب: إذا جامع فى رمضان ولم يكن له شئ فتصدق عليه فليكفر.

(5) فعن أبى هريرة أن أعرابيا جاء يلطم وجهه وينتف شعره ويقول : ما أرانى إلا هلكت ..." مسند الإمام أحمد ٥١٦/٢ .

٧- السكوت وصولا إلى المعاينة

وذلك فيما يتصل بالقدرة على إثبات المعانى، وتأكيد الدلالات، وإيضاح القضايا الهامة بربطها بما يحقق ذلك فيما تقتضيه من المواقف عن طريق التعبير الذى يتجاوز الوسائل اللفظية إلى التجارب العملية، التى تجمع القول والفعل فى إطار واحد، مما يكون له بالغ الأثر فى إبراز الحقيقة، وتجسيد الموقف وإثباته فى الجانبين الفكرى والنفسى "[١]، انظر فيما روى " عن أبى بكر بن أبى موسى عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه أتاه سائل يسأله عن مواقيت الصلاة، فلم يرد عليه شيئاً..."[٢] وفى رواية أنه قال له: (صل معنا هذين) – يعنى اليومين – فلما انتهى اليومان قال ﷺ: أين السائل عن وقت الصلاة؟ فقال الرجل : أنا يارسول الله . قال: وقت صلاتكم بين ما رأيتم " فالصحابى الجليل يسأل رسول الله ﷺ عن أمر مهم، يتعلق بالصلاة، وهو وقت الصلوات الخمس، والرسول ﷺ يرى أن الإجابة النظرية ليست بكافية فى إيضاح وبيان المراد، فيسكت قليلاً، ثم يطلب من السائل أن يصلى معه أوقات يومين كاملين حتى يعى الجواب جيدا، وإجابة الرسول ﷺ واجبة لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[٣]، فالنبى ﷺ سكت بعد الطلب، ولم يجبه، إلا بعد أن صلى يومين كاملين، هنا وقعت الإجابة موقعها من السائل، حيث عاينها بنفسه، ومارسها بعمله، ثم زاده ﷺ إيضاحاً وبيانا بما جاء فى رواية عبد الله بن عمرو بن العاص : " وقت صلاة الفجر ما لم يطلع قرن الشمس الأول، ووقت صلاة الظهر إذا زالت الشمس عن بطن السماء، ما لم يحضر العصر، ووقت صلاة العصر ما لم تصفر الشمس، ويسقط قرنها الأول، ووقت صلاة المغرب إذا غابت الشمس،ما لم يسقط الشفق،ووقت صلاة العشاء إلى نصف الليل"[٤].

---

(١) الخصائص البلاغية واللغوية فى أسلوب الحديث النبوى الشريف ص٢٤ .

(٢) صحيح مسلم ص١٤٨ كتاب : المساجد ومواضع الصلاة، باب : أوقات الصلوات الخمس .

(٣) الأنفال ٢٤ .

(٤) صحيح مسلم ص١٤٨ كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب : أوقات الصلوات الخمس .

ومن السكوت للوصول إلى المعاينة أيضا ما روى " عن أبى أمامة قال: بينما رسول الله ﷺ فى المسجد، ونحن قعود معه، إذ جاء رجل فقال: يارسول الله إنى أصبت حداً فأقمه علىّ، فسكت عنه رسول الله ﷺ ثم أعاد فقال: يارسول الله إنى أصبت حدا، فأقمه علىّ، فسكت عنه، وأقيمت الصلاة، فلما انصرف نبى الله ﷺ قال أبو أمامة : فأتبع الرجلُ رسولَ الله ﷺ حين انصرف، وأتبعت رسول الله ﷺ أنظر ما يرد على الرجل، فلحق الرجلُ رسولَ الله ﷺ فقال يا رسول الله: إنى أصبت حدا فأقمه علىّ، قال أبو أمامة : فقال له رسول الله ﷺ: أرأيت حين خرجت من بيتك، أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: ثم شهدت الصلاة معنا ؟ فقال: نعم يا رسول الله، قال: فقال له رسول الله ﷺ : فإن الله قد غفر لك حدك - أو قال ذنبك " [1]، قال العلماء : إن الرجل هو أبو اليسر عمرو بن غزية الأنصارى كان يبيع التمر، فأتته امرأة فأعجبته، فقال لها: إن فى البيت أجود من هذا فذهب بها إلى بيته، فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله فتركها وندم [2]، ثم أتى رسولَ الله فقال له (إنى أصبت حدا فأقمه علىّ) وكان من النبىّ ﷺ أن سكت عنه، لكن الصحابى يعود فيكرر مقولته، ورسول الله ﷺ ساكت لا يرد عليه، وسكوت النبى ﷺ له عدة دلالات، منها الإشارة إلى أن ما فعله الصحابى مع المرأة لا يوجب حدا [3]، إذ لو كان فعله يوجب حدا لم يسقط بالصلاة، فقد أجمع العلماء على أن المعاصى الموجبة للحدود لا تسقط حدودها بالصلاة[4]، ولذلك سكت النبى ﷺ حتى يتجاوز به الوسيلة اللفظية إلى التجربة العلمية،

---

(1) صحيح مسلم ٦٩٩ كتاب: التوبة، باب: قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ .

(2) ينظر: الكشاف ٢٣٨/٢ .

(3) وقد وضح الصحابى فعلته له ﷺ فى رواية أخرى حيث قال: " يا رسول الله إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينة، وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها... " صحيح مسلم ص٦٩٩ كتاب : التوبة، باب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ .

(4) صحيح مسلم بشرح النووى ٧١/١٧ .

التى تجمع القول والفعل فى إطار واحد، ومن هنا يكون الجـواب أوقـع وأشـفى، وأسـرع فى طمأنة الصحابى وإدخال السرور عليه .

ومنها أن سكوته ﷺ كان زجرا له على تصرفه، وعلى ما فعله بعد فقد "روى أنه أتى أبا بكر فأخبره، فقال: استر على نفسك وتب إلى الله، فأتى عمرَ ﷺ فقال له مثل ذلك، ثم أتى رسولَ الله ﷺ " [1]، وكان عليه أن يأتى رسول الله ﷺ أولاً، فإنهﷺ ملجأ المـسلمين فى كـل أحـوالهم خصوصا فى أوقات الزلة [2]، وقد يكون السكوت باعثه ما قاله عمر للرجل بحضرته ﷺ ففى رواية " عن عبدالله قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينـة، وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها، فأنا هذا، فاقض فىّ ما شئت، فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت نفسك، قال : فلم يرد النبى ﷺ شيئا، فقام الرجل فانطلق، فأتبعه النبى ﷺ رجلا دعاه، وتلا عليه هذه الآية : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [3]، فالرسول ﷺ لا يرضى لأمته كتمان شئ مما حاك فى صدورهم، بل يريـد منهم أن يسألوه عن كل ما يعرض لهم، ليعلموا حكم الله، فيقفوا عند حدوده .

ولو قلنا إن السكوت كان لانتظار الوحى لم نبعد، وهو ما يدل عليه ظاهر رواية عبد الله، وما روى من أن الصحابى لما أتى رسول الله وأخبره بما فعل قال لهﷺ : " انتظر أمر ربى، فلما صلى العصر نزلت: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ﴾ فقالﷺ: اذهب فإنها كفارة لما عملت " [4] .

٨- السكوت لإظهار الحزن والأسف

وذلك عندما يقع بالشخص فعل ممن لا يتوقع حدوثه منه، لكونه أرفع وأرقى مـن هـذا التصرف السئ، أو عندما يخبر الإنسان عن كارثة ستحل بمن لا يرضى ذلك لهم، فمن الأول مـا

---

(1) الكشاف ٢٣٨/٢ .

(2) قال تعالى:﴿ وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْـرِ مِـنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ النساء ٨٣ .

(3) صحيح مسلم ٦٩٩ كتاب : التوبة، باب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ﴾ .

(4) الكشاف ٢٣٨/٢ .

روى " عن معاوية بن الحكم السُّلمى، قال: بينا أنا أصلى مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله ؛ فرمانى القوم بأبصارهم، فقلت وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ ! ما شأنكم تنظرون إلىّ ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يُصَمِّتوننى، ولكنى سكتّ، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبى هو وأمى ! ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فو الله ما كهرنى، ولا ضربنى، ولا شتمنى قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شئ من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن " [1]، فالصحابى يذكر ما حدث منه وله عندما قدم من البادية إلى المدينة، ولم يكن يدرى عن تحريم الكلام فى الصلاة، فلما تكلم أثناء صلاته، حيث قال لمن عطس : (يرحمك الله)، حدث ما حدث من الصحابة، ولكن الأعرابى يقول: (لكنى سكت) أى تمالكت نفسى، ولزمت السكوت، وصبرت على ما لا يصبر عليه أحد، وهذا السكوت فيه دلالة على شدة حزنه، وبالغ أسفه لصنيع الصحابة معه، وأنه كان يتوقع منهم توجيها وإرشادا بالحكمة، والموعظة الحسنة، وقد كشف عن ذلك ما أخبرنا به عن تعليم الرسول ﷺ له، وموقفه منه، (ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فو الله ما كهرنى، ولا ضربنى، ولا شتمنى) فهذه عبارات تحمل مزيدا من الحزن والحسرة من فعل الصحابة، كيف لا يتشبهوا به، وكأنه بسكوته ينعى عليهم سلوكهم معه، إذ الشدة على الجاهل كثيراً ما تحمله على النفور ورفض الانقياد، بخلاف ما لو تعلم بالحكمة واللين ؛ لأنه جاهل، والجاهل لا يرى فى نفسه أنه مخطئ، فلسان حاله بسكوته يقول لمن ينكر عليه: أفلا علمتنى قبل أن تهاجمنى [2] .

ومن الثانى ما روى (عن أبى نضرة قال : كنا عند جابر بن عبدالله فقال : يوشك أهل العراق أن لا يجبى إليهم قفيز ولا درهم، قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قبل العجم، يمنعون ذاك، ثم قال: يوشك أهل الشام أن لا يجبى إليهم دينار ولا مُدْى . قلنا : من أين ذاك؟ قال من قبل الروم، ثم سكت هنية، ثم قال: قال رسول الله ﷺ : "يكون فى آخر أمتى خليفة يحثى المال حثيا، لا يعده

---

(1) صحيح مسلم ص١٣٠ كتاب: المساجد ومواضع الصلاة باب: تحريم الكلام فى الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته .

(2) ينظر: الأساليب النبوية فى معالجة أخطاء الناس ص١٦، ١٧ .

عددا")[1]، فهذا الحديث يتعلق موضوعه بمستقبل الأمة، وهو ينبئ عن حصار العراق، وحصار الشام، وهذا كله نتيجة ضعف المسلمين لتفريطهم فى شريعتهم، التى جعلها الله لهم. فالجملتان (يوشك أهل العراق ... يوشك أهل الشام ...) خبران عن ملمة ستحل – لا محالة – بالمسلمين، والمتكلم مدفوع بعوامل نفسية عنيفة واقعة عليه، لأنه يمثل واحدا منهم، وإن اختلف الزمن، وتباعد بين جيل وجيل، لأن ما سيصيب الآتين يؤلم الحاضرين، فجاء السكوت (ثم سكت هنية) ليسنفس عن نفسه التى علاها الحزن، وملكتها الكآبة، مما سيصير إليه حال هذه الأمة، ثم يتغور الجرح فى النفس حزنا وحسرة، وأسفا على المسلمين، بما يعلنه من التغيرات التى تلحقهم، والتى أخبر عنها رسول الله بقوله (يكون فى آخر أمتى خليفة يحثى المال حثيا) وكأن زيادة المال، وكثرة الخير ووفرته، قد تكون سبيلاً إلى فسادنا وإفسادنا، وفيه توجيه لا يخلو من دلالة الطلب، إذ يحمل أمراً ضمنياً باليقظة، وحسن الاستغلال لهذا المال، حتى لا تكون أداة طيعة فى يد غيرها فليتنا أخذنا بهذا التوجيه، حتى لا نرى ما نراه واقعا الآن .

٩- السكوت للمراجعة

وذلك عندما يكون الكلام بين شخصين، ويفاجأ أحدهما بما يخالف تصوره، فيضطر إلى السكوت لمراجعة ما أخبر به والتأكد منه، ومن ذلك ما روى " عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه، أن النبى ﷺ أعطى رهطا، وسعد جالس فيهم، قال سعد: فترك رسول الله ﷺ منهم من لم يعطه، وهو أعجبهم إلىّ، فقلت : يا رسول الله: مالك عن فلان؟ فوالله إنى لأراه مؤمنا، فقال رسول الله ﷺ: أو مسلما، قال: فسكت قليلاً، ثم غلبنى ما أعلم منه، فقلت: يارسول الله : مالك عن فلان؟ فو الله إنى لأراه مؤمنا، فقال رسول الله ﷺ : أو مسلما . قال فسكت قليلا، ثم غلبنى ما علمت منه، فقلت: يا رسول الله: مالك عن فلان؟ فو الله إنى لأراه مؤمنا ،ف قال رسول الله ﷺ:

---

[1] صحيح مسلم ٧٣٦ كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب : لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء .

أو مسلما، إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكب فى النار على وجهه " [١]، فالحديث يشير إلى أنه ﷺ بوحي من الله فاضل بين الناس فى العطاء، وذلك تبعا لحاجتهم، وهذا من ثاقب النظر فى تصريف الأمور، وعند ما رأى سيدنا سعد ذلك أراد أن يستوضح الأمر منه ﷺ فهو لم يعترض، وحاشاه أن يعترض، فقال عن رجل لم يعطه رسول الله ﷺ (يا رسول الله مالك عن فلان؟ والله إنى لأراه مؤمنا) هنا نرى النداء، والوصف بالرسالة، وإضافتها إلى الله، والاستفهام التعجبى، ثم القسم بلفظ الجلالة، والتأكيد بـ " إن " و " اللام " وصوغه فى صورة الاسمية، ويصف الرجل بالإيمان، كل ذلك يدل على اهتمام سعد بالأمر، والرغبة فى المعرفة، ونلحظ أن الرسول ﷺ لا يزيد على قوله (أو مسلما) وهنا نجد تصويب النبى ﷺ أخطاء التعبير بأسلوب يمتزج فيه اتجاهه الخلقى فى التعامل بدقته فى التعبير [٢] حيث الإشارة إلى الفرق بين الإيمان والإسلام، ودرجة كل منهما ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [٣] وكأن هذا التعديل منه ﷺ تنبيه إلى أن لفظة الإيمان ترتبط بمعنى غيبى غير معلوم، وغير داخل فى إطار علم المتكلم مطلقاً، ويجب عليه تركها إلى غيرها من الألفاظ المرتبطة بالدلالات الظاهرة الداخلة فى إطار علمه [٤]، فهنا يلفت النبيُّ ﷺ نظرَ المتكلم إلى تعديل كلمته، والصحابى الجليل يسكت قليلاً غير أنه يعود لترديدها، فيقتضى هذا الموقف تكرار لفت نظره تأكيداً لضرورة التعديل، وحين يعود مرة أخرى لاستعمالها يكرر النبى ﷺ تنبيهه حتى يعدل عما يقول، والملاحظ أن الصحابى عندما يسكت يوحى سكوته بأنه يراجع نفسه فى أمر هذا الرجل، ليتأكد من صحة ما يخبر به، أو يعدل إلى تصويب رسول الله ﷺ له، فيستحضر فى خاطره هذا الرجل، ومواقفه الإيمانية حسب الظاهر ، ويستفرغ كل ما فى نفسه عن شخصيته، فيرى صحة ما يقول فيعود إلى مقالته، ويقسم على ما يعلمه من حاله وكأنه يقر ما ذكره، وفيه جواز الحلف على

---

(١) صحيح مسلم ص٤٦، كتاب: الإيمان، باب: تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه، والنهى عن القطع بالإيمان من غير دليل قاطع .

(٢) الخصائص البلاغية واللغوية فى أسلوب الحديث النبوى الشريف ص٤٩ .

(٣) الحجرات ١٤ .

(٤) ينظر: الخصائص البلاغية واللغوية فى أسلوب الحديث النبوى الشريف ص٤٩ .

غلبة الظن، وإن لم يعلم ذلك بالدلائل القطعية، ولما وجد ﷺ إصرار الصحابي على موقفه وأنــه لم يعدل إلى تغيير كلمته، أتى بهذه الجملة المزيلة لما يتعلق بالموقف من وهم وفهم مخالف للحقيقة .

وقد يكون السكوت لمراجعة كلام الغير عند سماعه للتثبيت منه، ومن ذلك ما روى " عن نافع بن جبير: أن مروان بن الحكم خطب الناس، فذكر مكة وأهلها وحرمتها، ولم يــذكر المدينــة وأهلها وحرمتها، فناداه رافع بن خديج ، فقال: مالى أسمعك ذكرت مكة وأهلــها وحرمتــها، ولم تذكر المدينة وأهلها وحرمتها، وقد حرمّ رسولُ الله ﷺ ما بين لا بتيها، وذلك عندنا فى أديم خولانى إن شئت أقرأتكه، قال فسكت مروان، ثم قال: قد سمعت بعض ذلك "[1]، ففى الحديث بيان لحرمة المدينة، وأنها لا تقل عن حرمة مكة، حيث إنه لما ذكر مروان فى خطبته مكة وأهلــها وحرمتــها، تعجب رافع من ترك ذكر المدينة، وحرمتها مع أنهما فى الحرمة سواء، وقال مروان: (مالى أسمعــك ذكرت مكة وأهلها وحرمتها ولم تذكر المدينة) وحتى يؤكد وجود حرمة المدينة ذكــر أن ذلــك مكتوب عن رسول الله ﷺ فى أديم خولانى [2]، هنا سكت مروان، ولعل سكوته ليراجع فى نفسه ما قاله رافع، وهذا ما نرجحه بدليل (ثم قال: قد سمعت بعض ذلك) وقد يكــون ســكوته تــوقيراً واحتراما لابن خديج، وتعبيراً عن رضاه بما قال، ويمكن أن يكون سكوته لما تميل إليه نفــسه مــن تفضيل مكة على المدينة لأسبابه .

١٠- السكوت لضيق المقام

وذلك عندما يكون المخاطب بالكلام فى حالة لا تسمح به ؛ لشدة مرضه، أو لشدة غضبه أو نحو ذلك، ومن ذلك ما روى " عن ابن عمر قال: دخلت على حفصة فقالت: أعلمت أن أباك غير مستخلف ؟ قال: قلت: ما كان ليفعل، قالت: إنه فاعل . قال: فحلفت أنى أكلمه فى ذلــك، فسكت حتى غدوت ولم أكلمه . قال: فكنت كأنما أحمل بيمينى جبلاً، حتى رجعت فدخلت عليه، فسألنى عن حال الناس وأنا أخبره، قال: ثم قلت له: إنى سمعت الناس يقولون مقالة، فآليت أن أقولها

---

(١) صحيح مسلم ص٣٣٥ كتاب: الحج، باب: باب فضل المدينة، ودعاء النبى ﷺ فيها بالبركة، وبيان تحريمهــا، وتحريم صيدها وشجرها، وبيان حدود حرمتها .

(٢) أى فى جلد من قبيلة خولان باليمن، ولعله أراد دوامه ووضوح ما فيه .

لك، زعموا أنك غير مستخلف وإنه لو كان راعى إبل أو راعى غنم ثم جاءك وتركها رأيت أنه قد ضيع، فرعاية الناس أشد، قال: فوافقه قولى، فوضع رأسه ساعة، ثم رفعه إلى، فقال: إن الله – عز وجل – يحفظ دينه، وإنى لئن لا أستخلف فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف، وإن أستخلف فإن أبا بكر قد استخلف . قال: فو الله ما هى إلا أن ذكر رسول الله ﷺ وأبا بكر فعلمت أنه لم يكن ليعدل برسول الله ﷺ أحداً، وأنه غير مستخلف "[1]، فالحديث يؤكد الرباط العضوى بين المسلمين، فالسيدة حفصة لا يشغلها أمر أبيها وهو على فراش الموت، بقدر ما يشغلها أمر المسلمين بعد عمر، فتبدى حزنها الشديد وأسفها بهذا الاستفهام الموجه لابن عمر (أعلمت أن أباك غير مستخلف ؟) وهنا ينخلع قلب عبدالله لهذا الأمر قائلاً: (ما كان ليفعل) فتؤكد له حفصة هذا الأمر (إنه فاعل) ولشده الحرص على مصلحة المسلمين يحلف عبدالله أن يكلم والده فى ذلك، فيدخل عليه لهذا الأمر، غير أن المقام يلجمه، فهو يرى شدة الوجع بأبيه، وهذه الشدة تجعله لا يقوى على الكلام، فلم يرد أن يحمله فوق طاقته بما يشغله من أمر الأمة بعده، فمضى وكأنه يحمل بيمينه جبلاً، حتى عاد فى اليوم التالى ودخل عليه، ويفيد السياق خفة الألم، بدليل أنه سأله عن حال الناس، فأخبره ابنه، ثم استحضر مهابة والده، فقال: (إنى سمعت الناس يقولون مقالة) وقد أقسم أن يكلمه فى ذلك حتى لا تكون المهابة عائقا أمام مصلحة المسلمين، ثم يقول : (زعموا أنك غير مستخلف وإنه لو كان ... فوافقه قولى) واختياره للفعل (زعموا) يوحى برغبته فى بطلان هذا الكلام وعدم صحته، إذ الزعم مطية الكذب، وهنا يسكت عمر ساعة يراجع نفسه فى أمر الاستخلاف، ثم يتوجه إلى ابنه ويبوح بما انتهت إليه المراجعة (إن الله يحفظ دينه ...) إلى آخر الحديث، فسكوت ابن عمر كان لضيق المقام، أما سكوت عمر فكان للمراجعة والتثبت .

١١- السكوت لإظهار الراحة والرضا

وذلك كسكوته ﷺ عند إقلاع المخاطبين عن السؤال عما لا ضرورة إليه، فيما روى " عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس، فصلى لهم صلاة الظهر، فلما سلم قام على المنبر، فذكر الساعة، وذكر أن قبلها أموراً عظاماً، ثم قال: " من أحب أن يسألنى عن شئ

---

[1] صحيح مسلم ٤٨٠ كتاب : الإمارة، باب : الاستخلاف وتركه .

فليسألنى عنه، فو الله لا تسألوننى عن شئ إلا أخبرتكم به ما دمت فى مقامى هذا، قال أنس بن مالك: فأكثر الناس البكاء حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول: سلونى، فقام عبدالله بن حذافة فقال: من أبي يارسول الله ؟ قال: أبوك حذافة، فلما أكثر رسول الله ﷺ من أن يقول: سلونى . برك عمر فقال رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولاً . قال: فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك ... "[1]، النبى ﷺ فى هذا الحديث يبين أهمية السؤال، وأن له موقعا جليلاً فى باب العلم، لأنه السبيل إلى انتقاء المعرفة، وهو مفتاح العلم، بشرط أن يكون الهدف منه حميدا ، أما إذا كان من باب التعنت ، ومن باب الدخول فيما لا حاجة لنا به فالسكوت عنه أفضل، وهو ما كان فى هذا الحديث، حيث تنبه عمر ﷺ إلى غضبه ﷺ بسبب الإكثار عن السؤال عما لا ضرورة إليه، ولا حاجة لنا به، فبادر بالاعتذار عما حدث، مستعيذا بالله من غضب الله وغضب رسوله، ومعلنا للأصل الأصيل من الرضى بالله ورسوله ودينه، وعندها يسكت النبى ﷺ وتنفرج أسارير وجهه، وتستريح نفسه الطاهرة شكراً لله – عز وجل– فى علاه، ومعلنا رضاه عن رجوع الصحابة إلى الصواب .

وقد يأتى سكوته ﷺ تعبيراً عن الراحة والرضا لاستجابة الصحابة له، والتوقف عن أمر من شأنه دب الفرقة بين صفوف المسلمين، ففى حديث الإفك (فثار الحيان الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت ..)[2]، فالحديث يشير إلى أن موضوع الإفك كاد أن يعصف بالمسلمين لولا وجود النبى ﷺ بينهم، إذ أخذ يخفضهم أى يسكنهم، ويهون عليهم الأمر، حتى استجابوا له، وتوقفوا عن الجدال والمراجعة فى الكلام، وهو معنى (حتى سكتوا) وسكوتهم يوحى باستجابتهم لرسول الله ﷺ، وإن كانت بطيئة لشدة الموقف، ولولا رسول الله بينهم لوصل الأمر إلى ما لم تحمد عقباه، وأما سكوته ﷺ فجاء

([1]) صحيح مسلم ٦٠٦ كتاب الفضائل باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، أو لا يتعلق به تكليف ، وما لا يقع ونحو ذلك .

([2]) صحيح مسلم ٧٠٤ كتاب: التوبة، باب: فى حديث الإفك وقبول توبة القاذف .

تعبيراً عن ارتياحه لسكوتهم، ورضاه عنهم، فقد هدأت نفسه، واستقر جنانه، واطمأن على صحابته، فجاء سكوته شكراً لله وحمداً له على ذلك .

١٢- السكوت لإظهار التطلع إلى الأفضل

ويبرز ذلك واضحا فى التعامل مع الكريم، الذى يتطلع المخاطب إلى المزيد من كرمه، فكلما يعطيه يرضى بهذا العطاء ويرغب فى الزيادة ومن ذلك حديث آخر أهل الجنة دخولاً، يقول ﷺ " ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار، وهو آخر أهل الجنة دخولاً، فيقول: أى رب اصرف وجهى عن النار ؛ فإنه قد قشبنى ريحها، وأحرقنى ذكاؤها، فيدعو الله ما شاء الله أن يدعوه . ثم يقول الله تبارك وتعالى: هل عسيت إن فعلت ذلك بك أن تسأل غيره ؟ فيقول: لا أسألك غيره، ويعطى ربه من عهود ومواثيق ما شاء الله، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت . ثم يقول : أى رب قدمنى إلى باب الجنة، فيقول الله له : أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألنى غير الذى أعطيتك؟ ويلك يابن آدم ! ما أغدرك ! فيقول: أى رب ويدعو الله حتى يقول له: فهل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك، فيعطى ربه ما شاء من عهود ومواثيق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا قام على باب الجنة انفهقت له الجنة، فرأى ما فيها من الخير والسرور فيسكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أى رب أدخلنى الجنة، فيقول الله تبارك وتعالى له أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت ويلك يابن آدم ما أغدرك، فيقول: أى رب لا أكون أشقى خلقك، فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله تبارك وتعالى منه، فإذا ضحك الله منه قال: ادخل الجنة .... " [1] . فسكوت هذا الرجل فى كل مرة بعدما يمن الله عليه بمزيد من فضله ، ويحقق له ما يدعوه به يوحى بالرضا لهذا العطاء، والرغبة فى الزيادة، حيث يكشف السكوت عن الخواطر التى تجول فى نفسه، والتى تبدو مظاهرها فيما يدعو به عقب تحقيق ما دعا به، وسكوته بعده، انظر (فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت) (فرأى ما فيها من الخير والسرور فيسكت) وهذه الخواطر لا تخرج فى جملتها عن التطلع

---

(١) صحيح مسلم ص٥٦ حديث رقم ١٨٢ كتاب الإيمان، باب: معرفة طريقة الرؤية .

والرغبة فى المزيد من عفو الله وكرمه،وباعثها رحمة الله العظمى، وهى تسعة وتسعون جزءا ادخرها الله لعباده يوم القيامة ؛ ليرحمهم به، فاللهم اجعلنا من أهلها .

١٣- السكوت عن إصلاح خطأ لئلا يؤدى إلى خطأ أكبر

من المعلوم أن من قواعد الشريعة تحمل أدنى المفسدتين لدرء أعلاهما، فقد يسكت الداعى عن خطأ لئلا يؤدى الأمر إلى وقوع خطأ أعظم... ولا يعتبر ذلك تقصيراً، ولا تخاذلاً ما دام صادق النية، لا يخاف فى الله لومة لائم، وكان الذى منعه مصلحة الدين لا الخور والجبن [(١)]، ومن السكوت لهذا الغرض ما روى " عن عبد الله قال: لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناسا فى القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسا من أشراف العرب وآثرهم يومئذ فى القسمة، فقال رجل: والله إن هذه لقسمة ما عُدل فيها، وما أريد فيها وجهُ الله، قال: فقلت: والله لأخبرن رسولَ الله ﷺ، قال: فأتيته فأخبرته بما قال، قال: فتغير وجهه حتى كان كالصِّرف [(٢)]، ثم قال: فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله. قال: ثم قال: يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر، قال: قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثا " [(٣)]، فالنبى ﷺ بوحى من الله فاضل بين الناس فى القسمة، لكن رجلا ممن يجهل هذه الأسرار اعترض على القسمة التى فى ظاهرها تفضيل، وفى باطنها تكريم، وقال مقولته التى نقلها عبدالله بن مسعود إلى رسول الله ﷺ، فغضب ﷺ حتى بدا ذلك على وجهه الشريف، وانظر إلى أثر الاعتراض عليه ﷺ فقد كان شديداً على نفسه أن يرى من الناس من يرد حكم الله ورسوله ؛ يقول الصحابى (فتغير وجهه حتى كان كالصرف) وهذا التشبيه له دلالة فى بيان تأثره ﷺ بما عرف من أمر هذا المعقب على الله ورسوله، ورواية البخارى (

(١) الأساليب النبوية فى معالجة أخطاء الناس ص٢٢ .

(٢) الصرف : صبغ أحمر – اللسان ٣٣١/٧ صرف .

(٣) صحيح مسلم ص٢٥٢من كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه .

فغضب حتى رأيت الغضب فى وجهه) [١]، فكلها روايات تؤكد شدة وقع الكلام على مشاعره ﷺ حتى ظهرت آثاره على وجهه الشريف،ومع ذلك لم ينفس ﷺ عن غضبه، وسكت عن الأمر بإقامة الحد الشرعى على القائل،الذى سمعه من حوله من الصحابة وعامله بالفضل والإحسان دون القتل بالكفران، حتى لا يقال إنهﷺ يقتل أصحابه، لأن سبّ رسول الله ﷺ كفر يقتل به قائله حدا، لكنه ﷺ أعرض عنه، وجعله من جملة المنافقين تأليفا للقلوب، وخصوصا إذا كان العطاء من باب التأليف للنفوس لتكون الرحمة على وتيرة واحدة للناس أجمعين .

ومن ذلك أيضا ما روى " عن جابر بن عبدالله قال: كنا مع النبى ﷺ فى غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصارى : يا للأنصار، وقال المهاجرى: يا للمهاجرين . فقال رسول الله ﷺ: ما بال دعوى الجاهلية، قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال: دعوها فإنها منتنة، فسمعها عبد الله بن أبي فقال: قد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال عمر: دعنى أضرب عنق هذا المنافق، فقال: دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه " [٢]، فالرسول ﷺ عندما سمع استغاثة أصحابه بهذه الصورة أنكر ذلك عليهم بقوله (ما بال دعوى الجاهلية؟) فهو استفهام إنكارى يحمل تعجباً، فهو ﷺ ينكر متعجبا من ظهور هذه الدعوى من صحابته وهو لا يزال بينهم، لم يفارقهم، ولم يمض على فراقه لهم ما به يعود الإسلام غريبا كما بدأ، ثم نجد الرد يحمل النزعة القبلية أيضا بذكرهم الفعل الذى سبب الفتنة، لذلك جاء نهيه ﷺ عن ذلك سريعا (دعوها) ومعللا (فإنها

---

(١) صحيح البخارى كتاب : بدء الخلق، باب، وكان الصحابة يعرفون الفرح والغضب فى وجههﷺ كما كان ﷺ ينفرد بقراءة ما فى وجوه أصحابه .

(٢) صحيح مسلم ٦٥٩ كتاب: البر والصلة والآداب، باب: نصر الأخ ظالما أو مظلوما، وقوله: كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار أى ضرب دبره بيده، عندها قال الأنصارى : يا للأنصار، وهو نداء استغاثة تتخفى فى ثيابه عصبية قبلية تؤذن بالفتنة، وقول المهاجرى : يا للمهاجرين نداء استغاثة فى مقابل استغاثة الأنصارى، لا يقل عنه عصبية .

منتنة) ليقع النهى موقع القبول، ولما سمع عمر مقولة المنافق، وطلب من رسول الله ﷺ أن يسمح له بقتله، أمره ﷺ ألا يفعل ، وعلل لهذا الأمر قائلا (لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه) " لقد سكت النبى ﷺ عن المنافقين، ولم يقتلهم مع ثبوت كفرهم، وصبر على أذاهم لئلا يقول الناس : محمد يقتل أصحابه، خصوصا مع خفاء أمرهم " [١].

ومن السكوت عن إصلاح خطأ لئلا يؤدى إلى خطأ أكبر ما روى " عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك، لهدمت الكعبة، فألزقتها بالأرض، وجعلت لها بابين : بابا شرقيا، وبابا غربيا، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر، فإن قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة " [٢] . وفى رواية " لولا أن قومك حديث عهدهم فى الجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم، لنظرت أن أدخل الجدر فى البيت، وأن ألزق بابه بالأرض"[٣]، فالنبى ﷺ سكت عن إصلاح الخطأ الذى وقعت فيه قريش عندما جددت بناء الكعبة، حيث خالفت قواعد إبراهيم – عليه السلام – التى أشار إليها الحق تبارك وتعالى بقوله:﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾[٤] لأن ذلك يؤدى إلى خطأ أكبر منه، وهو حدوث الفتنة، لذلك نص العلماء على أنه إذا تعارضت مصلحة ومفسدة، وتعذر الجمع بينهما بدئ بالأهم، وهو درء المفسدة، فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وهذا درس تشريعى عظيم لعموم الأمة فى وجوب ترك المنكر، إذا كان سيترتب عليه منكر أشد، كما قال تعالى على لسان هارون لموسى عند ما ترك تغيير المنكر: ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [٥]، وهذا مأخوذ من الذكر الحكيم قال تعالى: ﴿ وَلاَ

(١) الأساليب النبوية فى معالجة أخطاء الناس ص٢٢ .

(٢) صحيح مسلم ص٣٢٨ كتاب :الحج، باب نقض الكعبة وبنائها .

(٣) المرجع السابق ص٣٢٩ كتاب: الحج، باب جدر الكعبة وبابها " فلم يهدم النبى ﷺ الكعبة، لبنيها على قواعد إبراهيم الخليل من أجل أن قريشا كانوا حديثى عهد بجاهلية، وخشى عليه الصلاة والسلام أن لا تحتمل ذلك عقولهم، وترك البنيان على ما فيه من النقص، والباب على ارتفاعه، وإغلاقه عن العامة مع أن ذلك نوعا من الظلم " الأساليب النبوية فى معالجة أخطاء الناس ص٢٢ .

(٤) البقرة ١٢٧ .

(٥) طه ٩٤ .

تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّواْ اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (١)، فقد نهى الله تعالى عن سب آلهة المشركين، مع أنه طاعة وقربة، إذا كان ذلك يؤدى إلى سب الله عز وجل، وهو أعظم منكر (٢) .

١٤- السكوت لهجر المخاطب المخطئ

وهو من الأساليب النبوية المؤثرة، خصوصا إذا عظم الخطأ أو الذنب، وذلك لما يحدثه الهجران والقطيعة من الأثر البالغ فى نفس المخطئ(٣) و" الإعراض عن المخطئ حتى يعود عن خطئه أسلوب تربوى مفيد، ولكن لكى يكون نافعا لابد أن يكون الهاجر والمعرض له مكانة فى نفس المهجور، وإلا فلن يكون لهذا الفعل أثر إيجابى عليه، بل ربما يشعر أنه قد استراح "(٤) انظر إلى موقف الرسول ﷺ وصحابته الكرام من كعب بن مالك عندما تخلف عن غزوة تبوك مع صاحبيه – مرارة بن الربيع وهلال بن أمية – ففى الحديث " قال ﷺ لأصحابه وهو بتبوك بعدما وصلها : ما فعل كعب بن مالك؟ قال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله حبسه برداه، والنظر فى عطفيه، فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا، فسكت رسول الله ﷺ ... " (٥) فسؤال النبى ﷺ سؤال عن حال كعب، وما فعل وليس إنكاراً لتخلفه ولا تأثيما له، وكأنه يقول : أى فعل أفضى به إلى التخلف ؟ لأن مثله لا يتخلف إلا إذا كان له عذر، ولم يتخلف كعب قبل ذلك قط عن غزوة غزاها رسول الله، وهنا يجيبه عبد الله بن أنيس السلمى من قوم كعب بقوله: (حبسه برداه، والنظر فى عطفيه) يعنى حبسه إيثاره الدّعة والنعمة والتلهى بالشباب وحسن الهيئة، وفى هذا شوب من غضبه على كعب، ولومه فى

---

(١) الأنعام ١٠٨ .

(٢) الأساليب النبوية فى معالجة أخطاء الناس ص٢٢ .

(٣) الأساليب النبوية فى معالجة أخطاء الناس ص٧٥، ٧٧ .

(٤) الأساليب النبوية فى معالجة أخطاء الناس ص٧٥، ٧٧ .

(٥) صحيح مسلم ص٧٠١ كتاب: التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه .

تقصيره، وقعوده عن الغزو فى سبيل الله [1]، وهذا ليس من باب ذكر أخيك بما يكره، ولهذا سكت رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه ذلك [2]، ولما رجع ﷺ من غزوته، نهى الناس عن الكلام مع كعب وصاحبيه، يقول كعب " فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه، وهو فى مجلسه بعد الصلاة، فأقول فى نفسى: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىّ، وإذا ألتفت نحوه أعرض عنى، حتى إذا طال ذلك علىّ من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة، وهو ابن عمى، وأحب الناس إلىّ، فسلمت عليه، فو الله ما ردّ علىّ السلام، فقلت له: يأ أبا قتادة : أنشدك بالله هل تعلمن أنى أحب الله ورسوله ؟ قال: فسكت، فعدت فناشدته فسكت..." فكعب هنا يبين ما حدث له ولصاحبيه بعدما نهى ﷺ المسلمين عن كلامهم، فذكر حال صاحبيه على طريق الإجمال، وأخذ يفصل فى حالته، التى ساءت إلى أبعد ما يتصور، فالرسول ﷺ يعرض عنه، والصحابة لا يكلمونه، ولما ثقل عليه ذلك تسور جدار ابن عم له، وسلم عليه فلم يرد عليه، ثم سأله: هل تعلمن أنى أحب الله ورسوله؟ فيسكت ولا يجيبه، ويكرر السؤال، ويتكرر الجواب بالسكوت، ليكون الجزاء من جنس العمل، لأنه اعتزل المسلمين فى حربهم فاعتزلوه فى سلمهم، فالسكوت فى الموضعين : (فو الله ما رد على السلام – فسكت فناشدته فسكت) إنما كان لهجر المسلمين له ، وعدم الإقبال عليه، لما أمرهم رسول الله به من النهى عن كلامهم معه، مقابل تخلفه عن الغزو، والقعود عن الجهاد مع رسول الله ﷺ بلا عذر .

---

(1) وهنا ينكر سيدنا معاذ عليه ذلك، وبدأ إنكاره بكلمة (بئس) التى هى أم باب الذم، وأراد أن يؤكد معناه، وأن السلمى يستحق هذا الذم بقوله، فقال (والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً) فأكد بالقسم، والنداء، وبأسلوب القصر وبكلمة (علمنا) .

(2) شرح أحاديث من صحيح البخارى د/ أبو موسى ص٦٦ بتصرف يسير .

١٥- السكوت لبيان جواز أن يدافع الإنسان عن نفسه

ومن ذلك ما روى " عن عائشة زوج النبى ﷺ قالت: أرسل أزواج النبى ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ فاستأذنت عليه وهو مضطجع معى فى مرطى (١) فأذن لها، فقالت: يا رسول الله إن أزواجك أرسلننى إليك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة، وأنا ساكتة، قالت: فقال لها رسول الله ﷺ أى بنية ألست تحبين ما أحب ؟ فقالت: بلى، قال: فأحبى هذه، قالت: فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ، فرجعت إلى أزواج النبى ﷺ فأخبرتهن بالذى قالت، وبالذى قال لها رسول الله ﷺ، فقلن لها: ما نراك أغنيت عنا من شئ فارجعى إلى رسول الله ﷺ فقولى له: إن أزواجك ينشدنك العدل فى ابنة أبى قحافة، فقالت فاطمة، والله لا أكلمه فيها أبداً، قالت عائشة : فأرسل أزواج النبى ﷺ زينب بنت جحش زوج النبى ﷺ .. فقالت: يا رسول الله إن أزواجك أرسلننى إليك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة . قالت: ثم وقعت بى فاستطالت علىّ، وأنا أرقب رسول الله ﷺ وأرقب طرفه هل يأذن لى فيها، قالت: فلم تبرح زينب حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر، قالت: فلما وقعت بها لم أنشبها حين أنحيت عليها (٢) قالت: فقال رسول الله ﷺ وتبسم: إنها بنت أبى بكر " (٣) .

لعل سبب ورود هذا الحديث هو ما جاء فى صحيح البخارى من أن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وهم يريدون الخير كما تريده عائشة، فأرسلوا إليه أم سلمة وقالوا لها (مرى رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث ما كان، أو حيث ما دار، قالت : فذكرت ذلك للنبى ﷺ فأعرض عنى) فالرسول ﷺ أعرض عن أم سلمة ، وسكت عن جوابها ، علها تدرك أنه لا شأن لعائشة بهذه الأمور، ولا شأن له ﷺ بها أيضاً، ولا يليق به أن يكلم الناس فى مثل ذلك ؛ لما فيه

(١) كساء من صوف .

(٢) يقال: أنحيته : أوهنته بالجراحة وأضعفته ، والراد غلبتها .

(٣) صحيح مسلم ص٦٢٥ ، كتاب: فضائل الصحابة، باب فى فضل عائشة رضى الله عنها .

من التعرض لطلب الهدية، وهو ﷺ بعيد عن هذا [1]، وفى رواية مسلم أن عائشة كانت تسمع كلام فاطمة مع أبيها وهى ساكتة، إذ لا شأن لها بهذا الأمر، ففاطمة تتكلم مع أبيها ولا شأن لعائشة به، وهو أدب عظيم ليت نساء اليوم يتحلين به، ولما انتهى أمر فاطمة جاءت زينب زوج النبى ﷺ تكلم رسول الله ﷺ فيما كلمته فيه فاطمة، وهو (إن أزواجك أرسلننى إليك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة) ثم تذكر عائشة أن زينب وقعت بها واستطالت عليها، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم، وسكوت النبى ﷺ عن مؤاخذة زينب يشعر بجواز أن يدافع الإنسان عن نفسه، وينتصر لها، ويكشف عما نسب إليه، من غير أن يتخطى الحدود، ويتكلم فيما هو حرام، كما نلحظ فى الحديث أنه ﷺ سكت عن رد عائشة على زينب أيضاً ، لأنه لم يكن فيه ما هو حرام ، ولم يتخطى الحدود، بل كان ردها حسما للخلاف، وإيقاظاً للمجاوزة فى القول، وهذا كله أدب رفيع، وخلق عالى، ليتنا نربى أولادنا وبناتنا وزوجاتنا عليه فتتحقق لنا السعادة فى الدنيا والآخرة .

---

(1) ينظر: عمدة القارئ ١٣/١٣٨، ١٣٩ .

خاتمة

الحمد لله أولاً وأخيرًا، والصلاة والسلام على من أرسله ربه بشيراً ونذيراً، وبعد هذه الجولة التأملية فى مظهر من مظاهر البلاغة النبوية، وبلاغة من سعدوا برؤية الطلعة البهية يمكن التذكير بالنقاط التالية:

- تعددت أغراض السكوت، وتنوعت دلالاته من موقف لآخر، وذلك لاختلاف الأحوال، وتقدير المسكوت عنه، وقد جاء ذلك مفصلا فى البحث .
- أن سكوته ﷺ عن إجابة بعض أصحابه لم يكن ليؤثر فى نفوسهم تأثيراً سلبياً، فيحملهم على الكره والنفور، بل كان له تأثير إيجابى، حيث يبقى الواحد منهم وجلا مشفقا متهما نفسه، يعيش فى حرج عظيم لا يسرى عنه إلا أن يتأكد من رضى رسول الله ﷺ عنه .
- أن سكوته ﷺ عن إجابة أصحابه لم تكن غضبا، أو كرها، ولكن كان شفقة على الناس وتبيينا لهم، حتى لا يظنوا ما ليس بواجب واجبا فيقعوا فى الحرج .
- أن السكوت كان يصاحبه بعض الظواهر التى تسهم فى توجيه الدلالة، وتبين عن الغرض، فالسكوت مع الابتسامة دلالة على الرضا والإقرار، وهو مع انقباض أسارير الوجه دلالة على الرفض والكراهة، وهكذا .
- أن السكوت قد تصاحبه بعض الإشارات، وكلها وسائل معينة على البيان .
- أن السكوت قد ينص عليه فى الكلام، وقد يدل عليه السياق .
- أن السكوت قد يعقبه قول أو فعل يسهم بشكل كبير فى بيان دلالة السكوت .
- أن قصد السائل المعرفة بسؤاله لا يمنع إنكار السؤال عليه ؛ بالسكوت عن إجابته، فقد يكون السؤال ناتجا عن خلل فى التصورات، ويكون السكوت للمراجعة، وتصحيح هذا الخلل .
- أن سكوته ﷺ كان – غالبا – لانتظار الوحى، وهذا دليل صدقه ﷺ وأمانته المطلقة فى تبليغ وحى ربه، فإن نزل عليه وحى بلغه، وإن أبطأ توقف منتظرا .

- أنه ﷺ كان يسكت عن إجابة أصحابه، لكون السؤال فى غير محله، أو لكون الجواب مما استأثر الله بعلمه، وقد نبههم إلى ذلك مرارا، أو أملا أن يغير السائل من ألفاظه لأنها ترتبط بمعنى غيبي إلى غير ذلك مما جاء بالبحث .

وأخيراً أسال الله العلى القدير أن يغفر لى ما كان فيه من نقص أو قصور، فهو وحده الذى يجبر ويغفر، وهو من وراء القصد والهادى إلى سواء السبيل .

فهرس المصادر والمراجع

١- الأساليب النبوية فى معالجة أخطاء الناس ،محمد صالح، ط: دار الفجر للتراث.

٢- الإيضاح فى علوم البلاغة، الخطيب القزوينى، ط: دار الجبل – بيروت .

٣- البداية والنهاية، ابن كثير، ط: دار الفكر العربى .

٤- البيان والتبيين، الجاحظ، ط: دار الفكر العربى .

٥- الجامع الصحيح للترمذى، ط: دار الحديث .

٦- الخصائص البلاغية واللغوية فى أسلوب الحديث النبوى الشريف د/فتحية العقدة ط: الأمانة

٧- ديوان حسان بن ثابت، ط: دار صادر – بيروت .

٨- ديوان أبى العتاهية، ط: دار صادر – بيروت .

٩- الدرر المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة ، السيوطى، ط: الحلبى .

١٠- رسائل الجاحظ، اختيار الإمام / عبيد بن حسان، مكتبة الخانجى .

١١- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين . النووى، ط: الأنوار المحمدية .

١٢- سر الفصاحة ، ابن سنان، ط: دار الكتب العلمية – بيروت .

١٣- شرح أحاديث من صحيح البخارى د/ أبو موسى، ط: مكتبة وهبة .

١٤- شروح التلخيص ، ط: دار السرور – بيروت .

١٥- صحيح البخارى، ط: دار التقوى للتراث .

١٦- صحيح مسلم ،ط: الحلبى، صحيح مسلم بشرح النووى، ط: دار إحياء التراث.

١٧- العقد الفريد، ابن عبد ربه ، المطبعة الأميرية . بولاق .

١٨- عمدة القارئ، العينى، مطبعة الحلبى ١٣٩٢م .

١٩- فيض القدير، المناوى، ط: دار الحديث - القاهرة .

٢٠- كتاب دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجانى، ط: المدنى .

٢١- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكرى، ط: دار الكتب العلمية .

٢٢- كتاب الطراز، العلوى، ط: دار الكتب العلمية .

٢٣- الكشاف، الزمخشرى، ط: دار عالم المعرفة .

٢٤- الكواكب الدرارى، الكرمانى ط: دار إحياء التراث .

٢٥- لسان العرب، ابن منظور، ط: دار إحياء التراث .

٢٦- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمى، مكتبة القدسى .

٢٧- مسند الإمام أحمد بن تيمية .

٢٨- مجموع فتاوى ابن تيمية .

٢٩- نهاية الأرب، النويرى، ط: وزارة الثقافة - القاهرة .